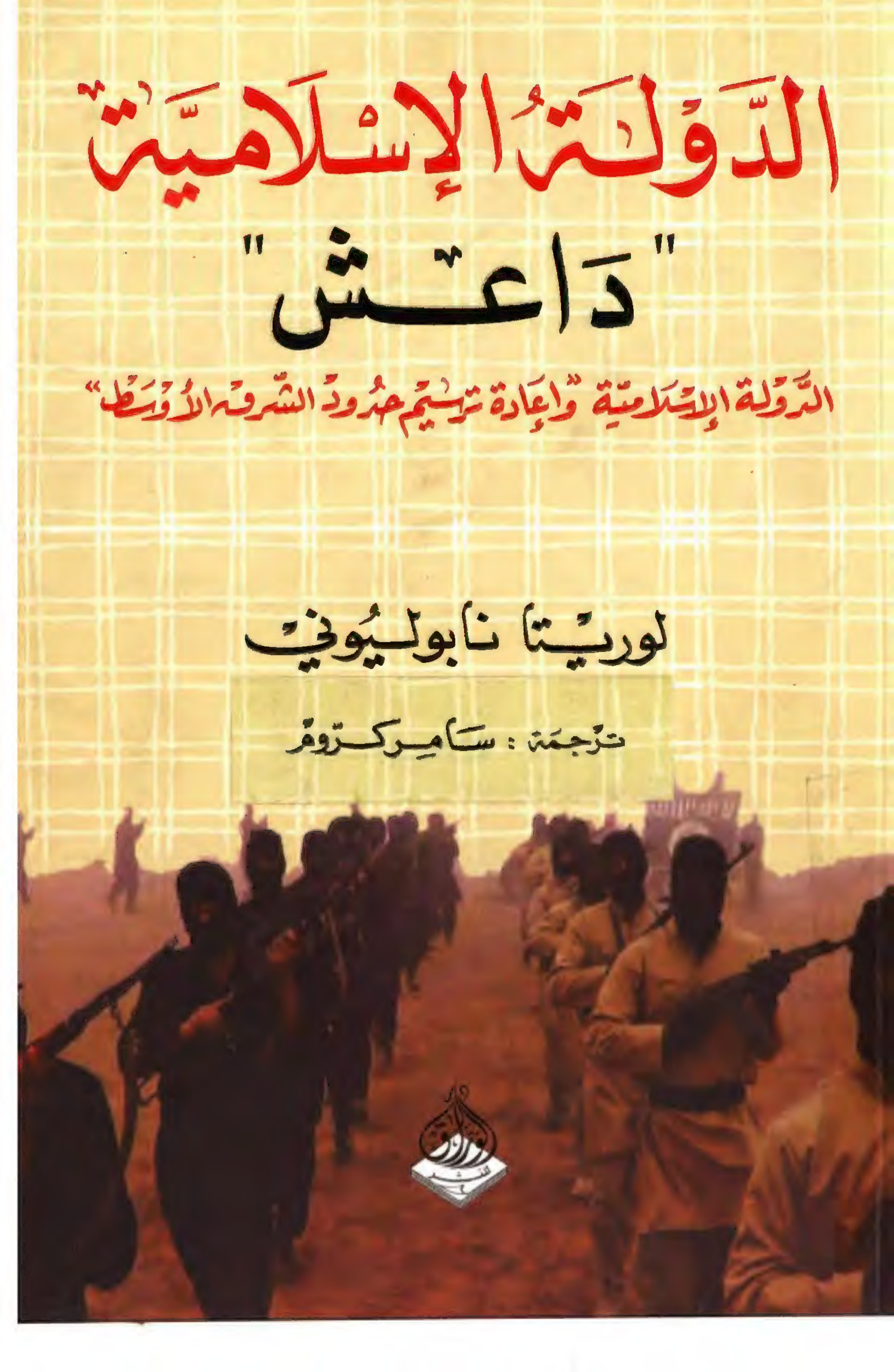
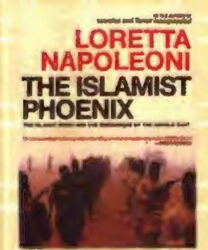

الدولة الإسلامية
"داعش"
الدولة الإسلامية "وإعادة ترسيم حدود الشرق الأوسط"
لوريتا نابوليوني
ترجمة : سامر كروم

لوريتا نابوليوني

الدولة الإسلامية " داعـ



THE ISLAMIST PHOENIX

LORETTA NAPOLEONI

هذا الكتاب

يرى الكثير من المراقبين في الغرب أن «الدولة الإسلامية»، والقاعدة من قبلها، عبارة عن تنظيم لا يأخذ بعين الاعتبار التتابع المنطقي للحقب الزمنية وتغير الأحوال مع كرّ الأيام وتوالي الليالي بل يريد أن يعود بعقارب الساعة إلى الماضي السحيق. بالفعل، فقد وصف اللاجئون السوريون والعراقيون حكم «الدولة الإسلامية» بأنه لا يختلف كثيراً عن حكم حركة طالبان. فسكان المناطق التي تسيطر عليها «الدولة الإسلامية» يواجهون خيارات تتلخص في اعتناق العقيدة السلفية أو الهرب أو الإعدام.

إن ما يميّزُ هذا التنظيم عن سواه من المجموعات المسلحة وما يجعله يحقق النجاحات تلو الأخرى، هو نهجه الحداثي والبرغماتي.

فقيادته تظهر فهماً لا مثيل له لجهة العراقيل التي تعترض سبيل القوى العصرية في عالم معولم متعدد الأقطاب. فقد شعرت «الدولة الإسلامية»، على سبيل المثال، قبل غيرها، بأن التدخل المشترك الأجنبي الذي حصل في ليبيا والعراق لا يمكن أن يستنسخ ليطبق على الحالة السورية.



دار الوراق للنشر
AL Warrak Publishing

الدولة الإسلامية "داعش"

وإعادة ترسيم حدود الشرق الأوسط

* الكتاب: الدولة الإسلامية "داعش" وإعادة ترسيم حدود الشرق الأوسط

* تأليف: لوريتا نابوليوني

* ترجمة: سامر كرّوم

* الطبعة الأولى: الورّاق للنشر 2015

* تصميم الغلاف: دار الورّاق

www.alwarrakbooks.com
www.facebook.com/warrakbooks
warrak123@gmail.com
ISBN: 978-9933-521-39-4

التوزيع

Alwarrak publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD-UK
Tel: 00442087232775
Fax: 00442087232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق أول
ص.ب 6435ـ113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961 ـ 1 ـ 750054
فاكس: 00961 ـ 1 ـ 750053
email: info@alfurat.com

شركة بيت الورّاق للنشر والتوزيع المحدودة
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
تلفون: 009647702749792
009647801347076

شركة دار الورّاق ش.م.م
خلدة ـ طلعة مبرة الإمام الخوئي ـ
بناية الحاج موسى صالح
هاتف: 00961 ـ 1 ـ 341927
فاكس: 00961 ـ 1 ـ 750053

الدولة الإسلامية "داعش"

وإعادة ترسيم حدود الشرق الأوسط

للكاتبة

لوريتا نابوليوني

ترجمة

سامر كرّوم



THE ISLAMIST PHOENIX

The Islamic state and the redrawing of the Middle East

By Loretta Napoleoni

Originally Published by Seven stories press,
New york, U.S.A, 2015

العنوان الأصلي للكتاب

طائر الفينيق[1] الإسلامي

«الدولة الإسلامية» وإعادة ترسيم حدود الشرق الأوسط

First Edition in Arabic by Al Warrak publishing 2015

(1) كل ألف عام، تريد العنقاء أن تولد ثانية، فتترك موطنها وتسعى صوب فينيقيا وتختار نخلة شاهقة العلو لها قمة تصل إلى السماء، وتبني لها عشاً. بعد ذلك تموت في النار، ومن رمادها يخرج مخلوق جديد.. دودة لها لون كاللبن تتحول إلى شرنقة، وتخرج من هذه الشرنقة عنقاء جديدة تطير عائدة إلى موطنها الأصلي، وتحمل كل بقايا جسدها القديم إلى مذبح الشمس في هليوبوليس بمصر، ويحيي شعب مصر هذا الطائر العجيب، قبل أن يعود لبلده في الشرق.
هذه هي أسطورة العنقاء كما ذكرها المؤرخ هيرودوت، واختلفت الروايات التي تسرد هذه الأسطورة، والعنقاء أو الفينكس هو طائر طويل العنق لذا سماه العرب «عنقاء» أما كلمة الفينكس فهي يونانية الأصل وتعني نوعاً معيناً من النخيل، وبعض الروايات تُرجع تسمية الطائر الأسطوري إلى مدينة فينيقية، حيث إن المصريين القدماء أخذوا الأسطورة عنهم فسموا الطائر باسم المدينة. [الناشر]

الفهرس العام

رسالة شكر وتقدير

بدأتُ صياغة هذا الكتاب في يونيو/حزيران من عام 2014 بينما كنت أراقب تكشُّف مرحلة جديدة من مراحل استنساخ منظمة الزرقاوي المسلحة وإحرازها تقدماً في العراق. تضافرت جهودي وجهود كلّ من مندوبة أعمالي **ديانا فينش** ومندوب دار النشر **دان سايمون** في إعادة قراءة كتابي «**العراق المتمرد**» وتفحص محتواه من جديد. وقد توّجت تلك الجهود بنتيجة مفادها أن نظرياتي كانت صائبة. وهكذا بدأنا العمل بينما تسارعت الأحداث وطغت على الساحة الدولية وجعلت من «الدولة الإسلامية» العدو اللدود الجديد للعالم. وقد كانت الأحداث والأوضاع آخذة بالتغير والتبدل بينما بدأت دار النشر في طباعة الكتاب.

أريد أن أعبّر عن شكري الخالص للصحفية والصديقة **لورا باسيتي** التي ساعدتني في جمع المعلومات والبيانات الخاصة بالدولة الإسلامية. كما أشكر **إديث شامبين** التي أظهرت لي مدى تقدم ونجاعة الحملة الإعلامية التي تطلقها الدولة الإسلامية. أشكر أيضاً **فرانشيسكا بوري** التي فتحت عينيَّ على النزاع في سورية، **وأشكر جزيل الشكر صديقتي ريا جوليان** محررة كتاب «**العراق المتمرد**» لأنها وافقت على تحرير هذا الكتاب أيضاً وساعدتني في تشذيب لغتي الإنكليزية وجعلِها أكثر رونقاً ووضوحاً.

وكعادته شكّل مساعدي فيديريكو باستياني عنصراً مسانداً فاعلاً، فلولاه لما استطعت إتمام هذا العمل في التوقيت المناسب. أريد أيضاً أن أقدم شكراً خاصاً لزوجة أخي كلوديا جيرسون وصديقي العزيز بارت ستيفنز لقراءتهما نصّ الكتاب مرتين. أشكر سالي كلين لاهتمامها بي وإعدادها الطعام بينما كنت منهمكة في الكتابة. أشكر أحفادها اللطفاء لأنهم رسموا الابتسامة على وجهي.

أشكر ستيفن وإليونورا كرياتورا لإيوائي في مسكنهم في ضيعة «شرق كْوُوغ»، نيويورك، حيث حرّرتُ النسخة الأولى.

أودّ التعبير عن شكري الخالص للعاملين في دار النشر، سفن ستوريز، فلولاهم لما أبصر هذا الكتاب النور. ولولا جهود سيلفيا سترامينغا لما تُرجم إلى عدة لغات.

أشكر أيضاً لويجي بيرنابو مندوب أعمالي الإيطالي الذي لم يشك لبرهة في نجاح هذا الكتاب.

أشكر زوجي وأطفالي وأمي وعمتي الذين ساندوني على الدّوام. أشكر أولاد العمومة دافيد ومارينا وأصدقائي الموثوقين الذين أصغوا إليّ بينما كنت أحدثهم بلا إنقطاع عن نظريتي حول «الدولة الإسلامية».

مقدمة

لأول مرة منذ الحرب العالمية الأولى، يقوم تنظيم مسلح بإعادة تصميم خارطة الشرق الأوسط الذي رسمت حدوده كلٌّ من بريطانيا وفرنسا في العقد الثاني من القرن العشرين. فقد عكفت «الدولة الإسلامية»، المعروفة سابقاً باسم «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، على شنّ حرب فتوحات أرادت من خلالها إزالة الحدود التي كانت قائمة منذ اتفاقية سايكس بيكو عام 1916[1]. يرفرف اليوم علم «الدولة الإسلامية» الأسود والذهبي على مساحة من الأرض تفوق مساحة المملكة المتحدة أو ولاية تكساس وتمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط في سورية إلى عمق الأراضي العراقية في منطقة الحزام السنّي. ومنذ أواخر شهر يونيو/حزيران عام 2014، أعلنت «الدولة الإسلامية» ـ الخلافة الإسلامية[2] عند إقامة دولة الخلافة الإسلامية على أراضي تلك

---

(1) بسمة أتاسي: «زعيم القاعدة العراقية يرفض أوامر الظواهري».

http://www.aljazera.com/news/middleeast/2013/06/06/201361317227827810.html.

(2) الخلافة «هي الاسم الذي يطلق على الدولة الإسلامية التي يقودها القائد الديني والسياسي الأعلى المعروف بالخليفة أو وريث النبي محمد. من بين سلسلة الإمبراطوريات الإسلامية الموصوفة باسم الخلافة هناك الأكثر شهرة الخلافة العثمانية (أو الإمبراطورية) التي حكمت من 1453 حتى 1924. مستندة على قوة سلاطين بني =

المنطقة. الخلافة التي اختفت عن العالم منذ انهيار الإمبراطورية العثمانية على يد أتاتورك عام 1924.

يرى الكثير من المراقبين في الغرب أن «الدولة الإسلامية»، والقاعدة من قبلها، عبارة عن تنظيم لا يأخذ بعين الاعتبار التتابع المنطقي للحقب الزمنية وتغير الأحوال مع كرّ الأيام وتوالي الليالي بل يريد أن يعود بعقارب الساعة إلى الماضي السحيق. بالفعل، فقد وصف اللاجئون السوريون والعراقيون حكم «الدولة الإسلامية» بأنه لا يختلف كثيراً عن حكم حركة طالبان[1]. فملصقات الجدران تبيّن بشكل واضح حظر التدخين واستخدام الكاميرات. ولا يسمح للنساء بالسفر من دون محرم ويجب أن يرتدين الحجاب ويسترن مفاتنهن ولا يسمح لهن بارتداء البنطال في الأماكن العامة. وفي الوقت ذاته، يبدو وكأن «الدولة الإسلامية» منهمكة في نوع من أنواع التطهير الديني من خلال دعوتها الفظّة. فسكان المناطق التي تسيطر عليها «الدولة الإسلامية» يواجهون خيارات تتلخص في اعتناق العقيدة السلفية أو الهرب أو الإعدام.

عُقدتْ مقارنات بين تنظيم القاعدة والملا عمر من جهة وخليفة المسلمين أبو بكر البغدادي الذي سطع نجمه على المسرح العالمي وتنظيمه من جهة أخرى. لكن المفارقة أن تلك المقارنات أفضت إلى

= عثمان، امتدت هذه الخلافة لتغطي البلقان وهنغاريا تحت حكم سليمان القانوني الكبير في القرن السادس عشر ووصلت إلى أبواب فيينا.

(1) نيك باتن وولش، غول تويسوز ورجا رازق «مجموعة مرتبط بالقاعدة تقوي سيطرتها في شمال سورية».

http//edition.cnn.com/2013/11/05/world/europe/syria-turkey-alquaeda/.

احتمالية تقليل الاستخبارات الغربية من شأن البغدادي وتنظيمه. فاعتبار «الدولة الإسلامية» تنظيماً متخلفاً، بسبب نهجه القروسطي في تمرير القوانين وضبط المجتمع، هو خطأ محض. لأنه وبينما كان عالم طالبان البالي متشرنقاً في مدارس تعليم القرآن والحديث فحسب، نجد أن التكنولوجيا الحديثة والعولمة شكلتا حاضنة «الدولة الإسلامية» وعبّرتا عن نهجها الحداثي.

إن ما يميّزُ هذا التنظيم عن سواه من المجموعات المسلحة، بما فيها تلك التي كانت فاعلة إبان الحرب الباردة، وما يجعله يحقق النجاحات تلو الأخرى، هو نهجه الحداثي والبرغماتي[1]. فقيادته تظهر فهماً لا مثيل له لجهة العراقيل التي تعترض سبيل القوى العصرية في عالم معولم متعدد الأقطاب. فقد شعرت «الدولة الإسلامية»، على سبيل المثال، قبل غيرها، بأن التدخل المشترك الأجنبي الذي حصل في ليبيا والعراق لا يمكن أن يستنسخ ليطبق على الحالة السورية. وعلى تلك الخلفية، قامت قيادة «الدولة الإسلامية» باستغلال ناجح للنزاع السوري بطريقة عززت من قدراتها في خضم حروب الوكالة وانتشار المجموعات المسلحة وتدفق الأموال من الممولين، وبشكل لم يلحظه كثير من المراقبين. وقد رغب الكويتيون والقطريون والسعوديون، في سعيهم لتغيير النظام في سورية، رغبوا بتوفير الدعم المالي لطيف واسع من التنظيمات المسلحة ومن بينها بطبيعة الحال «الدولة الإسلامية». لكن «الدولة الإسلامية» لم تقم

---

(1) كي تكون عصرياً تعني طريقة في فهم العالم الذي يستغل إمكانياته وديناميكيته الحالية في التغيير نحو تطور أكمل. بول نادال «ما هي الحداثة؟».

http://belate.wordpress.com/2013/03/03/Whatismodernity/.

بالقتال في حروب الوكالة بالأصالة عن الممولين، بل استخدمت الأموال التي حصلت عليها لترسيخ معاقلها في الأراضي التي احتلتها لا سيما في المناطق الاستراتيجية مالياً كمنطقة شرق سورية الغنية بالنفط. وهذه سابقة لم نشهدها من قبل. فلأول مرّة يستطيع تنظيم مسلح في الشرق الأوسط الترويج لنفسه كحاكم جديد للمنطقة مستخدماً أموال مموليه الأغنياء في دول الخليج.

ورغم تعامل «الدولة الإسلامية» الهمجي مع أعدائها والبون الشاسع الذي يفصل خطابها عن خطاب حركة طالبان، إلا أنها تنشر رسالة سياسية قوية في العالم الإسلامي تتلخص في إحياء الخلافة وعودة العصر الذهبي الإسلامي من جديد. وتأتي هذه الرسالة في وقت يشهد فيه الشرق الأوسط زعزعة للاستقرار لم يشهد لها مثيل من قبل. فسورية والعراق تشتعلان وليبيا على شفا حرب قبلية جديدة ومصر قلقة يحكمها العسكر وإسرائيل في حرب جديدة مع غزة. وبالتالي، فإن إعادة إحياء الخلافة من جديد في ظل خليفة جديد لا يشكل للسُّنة انبعاث مجموعة مسلحة أخرى وحسب، بل بزوغ نجم كيان سياسي جديد واعد يطل برأسه من تحت رماد عقود من الحروب والدّمار.

إن تجسيد طائر الفينيق الإسلامي، إذا ما صحّ التعبير، لحالة إحياء الخلافة من جديد في أول أيام رمضان المبارك من عام 2014 ينبغي أن يُنظر إليه باعتباره فألاً قوياً يشير إلى التحدي الذي تشكله «الدولة الإسلامية» لشرعية سبع وخمسين دولة ذات أغلبية مسلمة. وكما عبّر عن ذلك أبو محمد العدناني، المتحدث باسم «الدولة الإسلامية» قائلاً: «إن شرعية جميع الولايات والمجموعات والدول والمنظمات تصبح لاغيةً

لدى اتساع سلطان الخليفة ووصول أجناده إلى مناطقهم». إن هذا يشكل تحدياً تفرضه دولة عصرية تقود جيشاً حديثاً تعود بشرعيتها إلى مفهوم التوسعات أو الفتوحات الإسلامية في القرنين السابع والثامن الميلادي في شبه جزيرة العرب.

يشعر أولئك القاطنون بالقرب من الحدود مع سورية أو العراق بالتهديد الدّاهم الفعلي. ففي يوليو/تموز من عام 2014، رفرف علم «الدولة الإسلامية» على قرى أردنية حدودية كما تدفق آلاف المقاتلين عبر الحدود السورية إلى لبنان واحتلوا قرية عرسال في أغسطس/آب من العام نفسه. ومنذ ذلك الهجوم بدأ الممولون الأوائل للتنظيم يخشون من تنامي قوته العسكرية. إذ نشرت المملكة العربية السعودية في بداية يوليو/ تموز 30 ألف جندي على حدودها مع العراق بعدما انسحب الجيش العراقي من تلك المنطقة.

ظاهرياً، تبدو «الدولة الإسلامية» مكسوة بقشور ذات طابع ديني محض إذ تتبع تكتيكات إرهابية تسوغها حسب تفسيراتها، لكن اللباب يختلف، حيث يتمثل في وجود ماكينة سياسية وعسكرية منخرطة كلّ الانخراط في مشروع بناء الأمة. والأكثر دهشة هو مسعاها لاستعطاف العامة والحصول على توافق مجتمعي يرضى بحكمها في الأراضي التي تسيطر عليها. فقد أكد القاطنون في المناطق التي تسيطر عليها «الدولة الإسلامية» أن قدوم مقاتلي الأخيرة تزامن مع تحسينات في إدارة الشؤون اليومية في تلك المناطق. فقد أصلح مقاتلو «الدولة الإسلامية» الطرقات وضمنوا استمرار توليد الكهرباء وأقاموا مآدب مجانية لمن فقد منزله من الجائعين والفقراء فقد أدركت إلى حدّ ما أن الأمم الحديثة في القرن

الواحد والعشرين لا يمكن أن تبنى عن طريق الرعب والعنف فحسب. بل يتطلب نجاح البناء توافقاً شعبياً[1].

ترمي الخطة الكبرى «للدولة الإسلامية» إلى استنساخ تجربة الخلافة القديمة على أرض بغداد ـ تلك الخلافة التي امتدت في تلك الحقبة الزّاهية من العاصمة العراقية إلى فلسطين أو ما يعرف الآن بإسرائيل[2] قبل أن تدمر على يد المغول عام 1258. وعد البغدادي، في خطابه الأول كخليفة المسلمين باسترداد كرامتهم وسؤددهم وعزتهم وحقوقهم وزعامتهم. وقد طالب الأطباء والمهندسين والقضاة والفقهاء بالانضمام إليه[3]. وبينما كان يخطب، عمل فريق من المترجمين من كافة أرجاء العالم على ترجمة خطابه، في الساعة ذاتها، وتحميله على المواقع الجهادية بلغات مختلفة بما فيها الإنجليزية والفرنسية والألمانية[4].

يعتقد الكثيرون أن «الدولة الإسلامية» ستمثل السُّنة كما تمثل دولة

---

(1) متفرقات.: حياة سكان الرقة تحت حكم ISIS: «هل تلك حقّاً خلافة أسوأ من الموت؟».
http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/life-under-is is-for-reside ts-of-raqqa-is-this-realy-a-caliphate-worse-thandeath-9715799.htm.

(2) بل شملت الإمبراطورية العباسية من حدود الصين إلى أطراف أوروبا. [الناشر]

(3) هنا سترينج، قائد الدولة الإسلامية أبو بكر البغدادي يخاطب المسلمين في الموصل.
http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/iraq/1094848 0/Islamic-state-leader-Abu-bakr-al-Baghdadi:adresses-Muslims-in-M asul.html.

(4) رولا خلف، قائد ISIS أبو بكر البغدادي.
http//www.Ft.com/cms/s/o/ec63dg4c-02bo-11e4-a68d-00144feab7de. html.

إسرائيل اليهود. دولة في أرضهم القديمة تسترد في الأوقات الحديثة. دولة دينية قوية تحميهم أينما كانوا. وبغض النظر عما قد تولده فكرة كهذه من صدمة وامتعاض، إلا أنها فكرة مسوغة قوية يستقبلها المسلمون الساخطون المستاؤون، لا سيما الشباب، الذين يعيشون في فراغ سياسي استحدث بسبب عناصر شتى كالفساد المستشري واللامساواة والظلم في الدول المسلمة المعاصرة ودكتاتورية بشار التي لا ترحم ورفض حكومة المالكي دمج السنة في نسيج الحياة السياسية العراقية، وبالتالي إنهاء موجة اضطهادهم من قبل ماكينة بغداد السياسية والفشل في استبدال البنية التحتية الاجتماعية والاقتصادية التي دمرت أثناء الحرب وارتفاع معدلات البطالة.

إنها رسالة مؤثّرة ومغرية في الوقت ذاته لا سيّما في صفوف المسلمين الشباب في أوروبا وأميركا. أولئك النّاقمون الذين يعانون من مشكلة الاندماج في المجتمعات الغربية التي لم تعدْ توفّر لهم الكثير من الفرص. أظهرت «الدولة الإسلامية» فهماً دقيقاً وحدساً سياسيّاً بشأن السياسات المحلية في الشرق الأوسط وإحباط المهاجرين المسلمين في العالم. لم تُحرز مجموعة مسلحة أخرى نجاحاً بالغاً كما فعلت «الدولة الإسلامية» في التكيّف مع عناصر طارئة مُلحة كتوفير بنية تحتية اجتماعية واقتصادية أساسية وعقد شراكة عمل مع السلطات المحلية في الأراضي التي تسيطر عليها في خضم جهودها الرامية إلى بناء الأمة.

بالفعل، قامت قيادة «الدولة الإسلامية» بدراسة بنية وتكتيكات المجموعات المسلحة الأخرى واستقت الدروس وطبقتها في السياق الجديد. فقد فهمت مدى تأثير «الحرب الدعائية لإثارة الخوف» على نسق

ما كانت تقوم به مجموعات مسلحة أوروبية في الستينات والسبعينات من القرن الماضي كالألوية الحمراء في إيطاليا والجيش الجمهوري الإيرلندي في إيرلندا الشمالية. وقد برعت في استخدام قنوات التواصل الاجتماعية لنشر فيديوهات مُحكمة الإخراج وصوراً تعرض أفعالها الهمجية التي انتشرت محلياً وعالمياً.

يشكل الخوف سلاحاً أكثر نجاعة من المواعظ والخطب الدينية، وهذا أمر فشلت القاعدة في استيعابه. تفهم «الدولة الإسلامية» تماماً أن العنف، في أقصى درجاته، يغدو مادةً دسمةً لدورة الإعلام التي لا تنقطع في عالم متعطش للأحداث المثيرة والصور البشعة. وهكذا، يحمّل على الانترنت كمّ لا بأس به من الصّور والفيديوهات التي تعرض عقوبات وحشية ومشاهد تعذيب بطريقة يسهل النّفاذ إليها من خلال الهواتف المحمولة. وقد أصبح معروفاً أن مجتمعاتنا الفضائية الإلكترونية تلهث وراء مشاهدة المحتوى المثير للأحاسيس بحيث أصبحت تلك الصور والفيديوهات السّادية معرضاً رائعاً يستقطب الكثيرين.

لقد استقت «الدولة الإسلامية» أيضاً دروساً في الحرب الدعائية من الغرب، إذ حللت آلة الحرب الدعائية البريطانية والأميركية التي وُظِّفت لتبرير ضرباتها الاستباقية ضد العراق عام 2003. ومصداق ذلك تركيزها على خطاب وزير الخارجية الأميركي آنذاك، كولن باول، في مجلس الأمن في الخامس من فبراير/شباط من العام ذاته، الذي يولى له الفضل في خلق أسطورة أبي مصعب الزرقاوي لتبرير غزو العراق.

وبفضل التوظيف المهني المكثف للإعلام الاجتماعي، استطاعت «الدولة الإسلامية» استحداث أساطير زائفة شبيهة بتلك التي استحدثها

باول. واستطاعت بالتالي أن تنشر رسائلها وتجند مقاتليها وتجمع الأموال من العالم الإسلامي. وقد عزز من نجاح استراتيجيتها عنصر مهم ارتبط بحياكة محكمة لميثولوجيا (أسطورة) زعيمها أبي بكر البغدادي وإحاطته بهالة من السرّية. ففي عالمنا الطافح بالمعلومات، تلعب السرية دوراً كبيراً في دغدغة المخيال الجمعي. فالممنوع مرغوب، كما يقال. وكلما حُجب الشيء زادت الرغبة في الاطلاع عليه. وكلما قلّت المعرفة بالشيء زادت التخيلات بشأنه. ما عليك سوى تزويد المشاهدين بمقطع فيديو صغير ليطلقوا العنان لمخيلتهم. وتعتمد صناعة الإعلانات، التي تقدر بمليارات الدولارات، على هذه المفاهيم البسيطة. كما تستخدم «الدولة الإسلامية» تلك المفاهيم لصناعة أسطورة البغدادي ودولة الخلافة الجديدة.

يتحدث الإسلام عن لغز عودة النبي المخلص. وعليه، فإن «الدولة الإسلامية» تقوم بترهيب الغربيين بعمليات قتل صادمة همجية وتجعل أتباعها من المسلمين في الوقت ذاته يؤمنون بأن النبي قد عاد بعباءة البغدادي. وما يدهش في هذا الخضم هو دهشتنا نحن.

إن الاعتماد على عصا العنف وتطبيق حدود الشريعة من جهة وجزرة الحرب الدعائية وتوفير برامج اجتماعية متعددة تلقى الاستحسان وتهدف إلى تحسين الظروف المعيشية للسكان في دولة الخلافة السنية من جهة أخرى، يدلّ على أن «الدولة الإسلامية» تتمتع بحسّ براغماتي[1] ذرائعي

(1) اسم مشتق من اللفظ اليوناني: ـ براغما: ـ ومعناه العمل، وهي مذهب فلسفي ـ سياسي يعتبر نجاح العمل المعيار الوحيد للحقيقة؛ فالسياسي البراغماتي يدعّي دائماً بأنه يتصرف ويعمل من خلال النظر إلى النتائج العملية المثمرة التي قد يؤدي إليها قراره، وهو لا يتخذ قراره بوحي من فكرة مسبقة أو أيديولوجية سياسية محددة، وإنما =

عميق (وهي مختلفة عن تنظيم القاعدة في هذا التوجه). وإذا ما نجحت هذه الاستراتيجية فإن الأسرة الدولية سترغم على مواجهة سيناريو جديد في تاريخ الإرهاب وبناء الأمم. وهكذا، ستنجح «الدولة الإسلامية» في توفير حل ملائم لـ«معضلة الإرهاب» الذي يشكل التّحدي النهائي للدولة الحديثة.

بالفعل، يجب أن تقرر الدولة الحديثة فيما لو كانت الأفعال الإرهابية تشكل تهديداً للأمن القومي أو القانون والنظام. وتنبع المعضلة من المسؤولية المزدوجة التي تقع على عاتق الدولة الحديثة: حماية مواطنيها من الأعداء في الخارج وحمايتهم من المجرمين في الداخل.

ترغب المجموعات المسلحة الإطاحة بالدول القائمة، ولهذا فإنها تشكل تهديداً للأمن القومي. فعلى سبيل المثال، تهدف «الدولة الإسلامية» إلى تحرير أراضي دولة الخلافة القديمة (خلافة بغداد) من قبضة الحكم الطغياني للشيعة وضم الأردن وإسرائيل لإعادة إقامة دولة الخلافة. بيد أن المجموعات المسلحة تستخدم المجرمين. وفي حالتي تنظيم القاعدة و«الدولة الإسلامية» تستخدم وسائل همجية كالعمليات التفجيرية الانتحارية وحتى قتل الأعداء وصلبهم لتحقيق مآربها.

لقد تجاهلت الدول الإرهاب وقزّمته باعتباره شكلاً من أشكال الجريمة وتهديداً للقانون والنظام حتى شن بوش حربه عليه. وحتى

= من خلال النتيجة المتوقعة للعمل. والبراغماتيون لا يعترفون بوجود أنظمة ديمقراطية مثالية إلا أنهم في الواقع ينادون بأيديولوجية مثالية مستترة قائمة على الحرية المطلقة، ومعاداة كل النظريات الشمولية وأولها الماركسية. [الناشر]

عندما أعلن بوش أن تنظيم القاعدة يشكل خطراً على الأمن القومي، اعتبر عناصر تنظيم القاعدة مقاتلين غير شرعيين ولم يصلوا إلى مرتبة أو حيثية الأعداء. لذا، يمكن تعريف الإرهاب بأنه جريمة ذات أهداف تدعو للحرب[1].

إلا أن نجاح «الدولة الإسلامية» في بناء دولة حديثة يهابها الجميع عن طريق توظيف وسائل إرهابية لكسب أراضي تخضعها لسيطرتها وإجراء إصلاحات اجتماعية وسياسية لضمان التوافق الشعبي، ستبرهن عن ما عبرت عنه جميع المجموعات المسلحة، وهو أن عناصرها ليسوا مجرمين بل أعداء انخرطوا في حرب غير متماثلة للإطاحة بأنظمة استبدادية وفاسدة وغير شرعية.

كتب هذا الكتاب بينما كانت حرب الفتوحات على يد «الدولة الإسلامية» سارية على قدم وساق. وبينما سيستمر الصراع لفترة طويلة من الزمن يحاول الكتاب الإجابة عن أسئلة رئيسة بشأن طبيعة وأهداف «الدولة الإسلامية» ودولة الخلافة. ولا يحاول توقع نتائج الصراع بل مساعدة القارئ على فهم طبيعته. لكن إحدى النتائج التي يمكن استخلاصها بداهة تتعلق بتعزيز زخم وانتشار الإرهاب الإسلامي وتنامي قوته لا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول لدرجة أنه توسع الآن ليتناول قضية بناء الأمة من خلال اللحاق بركب عالم متسارع متغير تلعب فيه الحرب الدعائية والتكنولوجيا دوراً متنامياً مهمّاً. وهذا ما لا يمكن أن نصف به القوى التي انخرطت لإيقاف انتشاره.

---

(1) بول جيلبرت: **الإرهاب، الأمن، الوطنية** (لندن روتليدج 1995).

ملاحظة بشأن التسميات[1]

إن بزوغ نجم منظمة مسلحة تعرف باسم «الدولة الإسلامية» في يونيو/حزيران من عام 2014 كان قد حصل بسرعة فائقة وعلى نحو لم يلاحظه الكثيرون. وقد غيّرت هذه المجموعة اسمها مرّات عديدة قبل أن تطلق على نفسها أخيراً اسم «الدولة الإسلامية». فقد بدأت باسم جماعة التوحيد والجهاد بزعامة الزرقاوي ثم بالدولة الإسلامية في العراق وتحولت بعد ذلك إلى القاعدة في العراق ثم عادت عام 2010 إلى الدولة الإسلامية في العراق بزعامة البغدادي ثم الدولة الإسلامية في العراق والشام عام 2013 بعد دمجها مع قطاع من جبهة النصرة، وهي مجموعة جهادية سورية مرتبطة بالقاعدة. وأخيراً وقبيل الإعلان عن إقامة

---

(1) ملاحظة: تستخدم كلمة «تنظيم»وتسبق مصطلح «الدولة الإسلامية» في بعض وسائل الإعلام العربية للدلالة على المجموعة التي يتزعمها البغدادي. وتعكس كلمة تنظيم دلالة مفادها أن «الدولة الإسلامية» هي في حقيقة الأمر مجموعة مسلحة قد لا ترتقي إلى مستوى الدولة بمفهومها الحديث. وتخالف هذا الرأي الكاتبة في تفسيرها لاستخدام «الدولة الإسلامية» إذ تقول إن المجموعة تعكف على إرساء دعائم مشروع لبناء الأمة. ولهذا وجب تسميتها بالدولة الإسلامية لأنها في الأصل أسمت نفسها كذلك. وتطلق بعض وسائل الإعلام وعدد من الشخصيات اسم «داعش» على المجموعة، ويبدو أن تلك التسمية التي تمثل مفردات أوائلية للدولة الإسلامية في العراق والشام، يبدو أنها تدعو للتقليل من شأن المجموعة لأن لفظ «داعش» غير مستساغ لغةً وغير موفق اختصاراً لأن المفردات الأوائلية قد تصلح في اللغة الإنجليزية ولا تصلح في العربية إلا في حالات ضيقة. وبغض النظر عن التسميات الأخرى ارتأيت كمترجم أن ألتزم بما سمّت به الكاتبة هذه المجموعة أي «الدولة الإسلامية» ووضعتها بين معكوفين للدلالة على أنها تدلّ على مجموعة البغدادي حتى لا يغوص القارئ في مدلولات الدولة الإسلامية التي تتحدث عنها الأدبيات التاريخية بإسهاب. [المترجم]

الخلافة تغير الاسم ليصبح «الدولة الإسلامية». غير أنها عُرفت ببساطة في سورية منذ قدومها، وفي العراق الآن باسم «الدولة». **أما الاختصارات فعديدة.** وقد تزامنت كل تسمية مع تطورات كبرى وتغييرات مهمة في مسار المنظمة. وهكذا فإن هذا التنوع في التسميات التي أطلقت على «الدولة الإسلامية» أضاف قطعة أخرى لأحجية الشرق الأوسط السياسية التي يحاول الغرب والعالم أن يفك طلاسمها.

يعكس التوحيد والجهاد مفهومين متداخلين في الإسلام هما توحيد الله والجهاد الذي يرمي إلى إعلاء كلمة الله وتعزيز رسالة الإسلام التي تتلخص في وحدانية الخالق. فهو الحاكم ولا شيء يعزب عنه في هذا الكون. وبالتالي فإن المسلمين يعتبرون الدولة الإسلامية الأصلية ـ الخلافة الإسلامية، في المدينة المنوّرة وإبان الخلافة الراشدة ـ مجتمعاً مثالياً يحكمه التفويض الإلهي. وباختصار مثلت الخلافة التعبير السياسي لإرادة الله. واليوم يعبّر الجهاديون عن التوحيد بتوجيه الإبهام إلى السماء. تلك الإشارة التي أصبحت التحية الرسمية لمقاتلي الدولة الإسلامية العصرية.

تزامن التحول من حركة التوحيد والجهاد إلى الدولة الإسلامية في العراق مع جهود مجموعة الزرقاوي المسلحة في التركيز على العراق، وقد انحصر الجهاد في ذلك البلد الذي اعتبر منصة انطلاق لإعادة إحياء الخلافة. وعلى النسق نفسه تمثل إضافة البغدادي لكلمة «الشام» ـ دمشق التاريخية والمناطق المحيطة بها ـ خطوة إلى الأمام وتعكس جهوداً لا تعترف بالحدود بين الدول الإسلامية بل ترمي إلى تحقيق الهدف المنشود: إقامة الخلافة.

تمثل ولادة «الدولة الإسلامية» ـ باسمها الجديد الذي أعلن عنه في اليوم الذي سبق إعلان الخلافة ـ مرحلة جديدة كبرى لبناء الأمة، وهي عملية استحداث الظروف التي أدّت في القرن السابع إلى إقامة المجتمع الإسلامي المثالي.

في هذه الأثناء يصبغ الإعلام الغربي والسياسيون التنظيم العسكري الذي يتزعمه البغدادي بتسميات مختلفة.

يستخدم كلّ من البيت الأبيض وداوننيغ ستريت (مقر رئيس الوزراء البريطاني) اختصار الـ ISIL بينما يفضل الاعلام الأميركي اختصار الـ ISIS. أما شبكة PBS الأميركية فتفضل تسمية الدولة الإسلامية ويتبنى الإعلام الأسترالي اسم مجموعة الدولة الإسلامية ليتجنب توفير انطباع يفيد بأنها دولة عوضاً عن كونها منظمة مسلحة. وعلى العموم فإن استخدام مختصرات كـ: ISIS أو ISIL ملائم في اللغة الإنكليزية أكثر مما هو عليه الحال من استخدام مختصر الـ IS. كما أن تردد السياسيين في استخدام كلمة «الدولة» ينبع من خشية قبول مزاعم الدولة الإسلامية بأنها ليست منظمة إرهابية لكنها دولة تستمد شرعيتها من حرب الفتوحات والتوافق الداخلي.

استخدمتُ في طيات هذا الكتاب تسمية «الدولة الإسلامية» لأنها التسمية التي سمّت بها المجموعة نفسها منذ فترة، ومن المرجح أن تستمر هذه التسمية كذلك. ومن وجهة نظري، أعتقد أن تسمية «الدولة الإسلامية» تحمل رسالة أكثر واقعية إلى العالم إذا ما قورنت بالتسميات السابقة. وتفيد هذه الرسالة تصميم المجموعة على النجاح في بناء نسخة للخلافة توائم القرن الواحد والعشرين. إن استخدام مفردات أوائلية أو

اختصارات لغرض دعائي يخفي من ورائه طبيعة «الدولة الإسلامية» الحقيقية سوف لن يساعدنا على التصدي للخطر الحالي، بل على العكس من المرجح مرة أخرى أن يحول دون تطوير استراتيجية مخصصة لإحلال السلام في جميع أرجاء الشرق الأوسط مرة وإلى الأبد.



توطئة

إرهاب من نوع آخر؟

لقد شكلت نجاحات «الدولة الإسلامية» في السنوات الثلاث الماضية ظاهرة غير مسبوقة. فمن خلال توظيف الوسائل الوحشية واستلهام البصيرة الثاقبة غدت «الدولة الإسلامية» في وارد تحقيق ما لم يكن وارداً تحقيقه في السابق. أعني بذلك إعادة بناء دولة الخلافة الإسلامية التاريخية. فمنذ الحرب العالمية الثانية، لم تتمكن أي مجموعة مسلحة من السيطرة على مساحات شاسعة كالتي تسيطر عليها «الدولة الإسلامية» حالياً. فعلى سبيل المثال، لم تسيطر منظمة التحرير الفلسطينية ـ وهي المنظمة المسلحة الأكبر حجماً على الإطلاق ـ على عشر أعشار ما سيطرت عليه «الدولة الإسلامية» في الوقت الرّاهن. ويعزى ذلك الإنجاز، في الغالب، إلى النزاع السوري الذي ولّد فراغاً شكّل حاضنة رئيسة لولادة نوع جديد من الإرهاب.

لقد غدت سورية تعبيراً ملائماً للخطاب الغربي الذي يحجب أي فكرة ترجح احتمالية وجود رابط بين بزوغ نجم «الدولة الإسلامية» وأحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول واجتياح العراق عام 2003 كردة فعل على تلك الهجمات. إذ يتوهم الغرب أن مخاض الربيع العربي في

سورية أفضى إلى حرب أهلية تكاثرت فيها أعداد المقاتلين السوريين الإسلاميين الذين ينتمون إلى تربة البلد ذاته.

ويتشبث الغرب والعالم أجمع بفكرة مفادها أن الوضع المرعب في سورية والعراق ليس له سابقة تاريخية. ونحن، أي الغرب، بالتالي غير مسؤولين عمّا يحصل من أحداث تعصف بالشرق الأوسط حالياً. وعليه، وبخلاف القوات غير النظامية لتنظيم القاعدة أو الجيش الانتحاري الذي أرسى دعائمه أبو مصعب الزرقاوي، تُصنف «الدولة الإسلامية» على أنها منظمة من نوع آخر: منظمة قادرة على توليد ايرادات مالية ضخمة، تمسك بزمام جيش حديث وفير العدّة، تمثل حاضنة دولية للعنف وتدفع رواتب منتظمة لجنودها المدرّبين. هذا التحليل لا غبار عليه. إلا أن الخطأ يكمن في اعتبارها كائناً فريداً في نوعه لا يمت بصلة إلى السمات الوراثية للكائنات الإرهابية التي سبقته.

صحيح أن «الدولة الإسلامية» بخلاف تنظيم القاعدة أو حركة طالبان، تدير أموالاً ضخمة حصلت عليها جزئياً من خلال ضم أصول إنتاجية كحقول النفط ومحطات توليد الكهرباء في سورية. فبحسب صحيفة وول ستريت جورنال فإن صادرات النفط فقط تولد 2 مليون دولار يومياً[1]. ومن نافلة القول إن الدولة تفرض، في المناطق التي تخضع لسيطرتها، ضرائب على المحال التجارية والشركات وتجار

---

(1) بينوا فوكون، أيلا البيرق «أموال الدولة الإسلامية تندفع إلى سورية والعراق بعمليات تهريب زيت معقدة».

http://online.wsj.com/articles/Islamic.state-funds-into-syria-and-iraq-with-labyrinthine-oil-smugglingoperation:1410826325.

السلاح والمعدات العسكرية والبضائع العامة التي يمرّ معظمها من خلال طرق تهريب مربحة على الحدود السورية العراقية والتركية. إن الدهاء التجاري الذي تتمتع به «الدولة الإسلامية»، إذا ما قورنت مع حركة طالبان مثلاً أو أية مجموعة مسلحة أخرى، تكشّفَ مؤخراً من خلال العثور، مصادفة، على التقرير المالي السنوي للدولة. لقد صيغ التقرير وفقاً لأعلى درجات المهنية في مجال الحسابات، لدرجة أن المرء قد يغفر له خطأ في التقدير إذا ما خلط بين التقرير وبين موازنة شركة متعددة الجنسيات تزدهر أنشطتها التجارية وتتمتع بشرعية تامة. فقد فصّل التقرير في إدراج حسابات الإيرادات والمصاريف لدرجة حساب تكلفة كل مهمة انتحارية[1].

لكن قدرة «الدولة الإسلامية» على التصرف كشركة تصدِّر الرّعب ليست قدرة فريدة في نوعيتها. ولا فرادة أيضاً في قدرتها على توليد الثروة النقدية أو فهمها العميق لأهمية الأصول الاستراتيجية كسدّ الموصل مثلاً. فبحلول منتصف التسعينات من القرن المنصرم، ووفقاً لوكالة الاستخبارات الأميركية (سي آي إيه)، كانت منظمة التحرير الفلسطينية تربض على مال وفير يتراوح بين 8 و14 مليار دولار أميركي. وهذا، بطبيعة الحال، مبلغ يفوق الناتج الإجمالي المحلي للبحرين (6 مليارات) أو الأردن (10,6 مليار) أو اليمن (6,5 مليار)[2]. أما الدولة فتشير التقديرات

---

(1) ألكسي بيلج تقارير ISIS السنوية تكشف أمراً عسكرياً تلهمه الشاعرية.

http://www.understanding.org/sites/default/files/Iswbackgronder-ISIS-Annual-Reports-O-p.d.f.

(2) قدرة منظمة التحرير الفلسطينية «GPO» على مساعدة السلطة الفلسطينية ليست واضحة.

http://www.gpo.gov/fdsys/pkg/GAOREPORTS-NSTAD-96-23htm.

إلى ثروتها البالغة 2 مليار دولار أميركي. وبالتالي فإنها تحتاج إلى وقت طويل لتصل ثروتها إلى ما وصلت إليه ثروة منظمة التحرير الفلسطينية في أواخر القرن الماضي[1].

إلا أن ما تفوقت به الدولة على سائر المنظمات المسلحة السابقة يكمن في قوتها العسكرية ودهائها الإعلامي وبرامجها الاجتماعية وفوق كل ذلك تركيزها على بناء الأمة. لا يشكّل الأمر إذن طفرة وراثية تستنسخ تجارب الماضي بل إن هذه المزايا الخفية في البرامج التي تتبعها الدولة تختلف عن تلك التي اعتمدتها المجموعات المسلحة في السابق وتفيد بالتالي بتحسن ملموس طرأ على النموذج الإرهابي. بالفعل، هذه التحسينات مستمدة من قدرة «الدولة الإسلامية» على التكيف مع بيئة سريعة التبدّل بدأت ملامحها تتكشف في أعقاب الحرب الباردة.

ففي الماضي، كانت تنحصر الأنشطة الإرهابية ضمن مناطق صغيرة الحجم تسيطر عليها جيوش دول قوية. فقد قارعت منظمة التحرير الفلسطينية آلة الجيش الإسرائيلي وقارع الجيش الجمهوري الإيرلندي آلة الجيش البريطاني. وفي السياق نفسه، انحصرت الطموحات التوسعية للمنظمات المتمردة، بالضرورة، ضمن تجاذبات الحرب الباردة والتحالفات التي كانت تميل مع القوتين العُظْمَيَين في تلك الحقبة وتقاتل بعضها عن طريق حروب بالوكالة مموّلة مادياً من كلا الطرفين كلّ حسب مصالحه.

---

(1) Press Release «لدى الدولة الإسلامية 2 مليار دولا أميركي من أجل الحرب ضد الولايات المتحدة».

http://vestnikkavkaza.net/news/politics/60124htm.

أما اليوم فقد أصبح العالم متعدد الأقطاب تتغير فيه التحالفات ويستشري فيه الإرهاب الممول من قبل بعض الدول. وهكذا، استطاعت «الدولة الإسلامية» أن تؤسس خلافتها على أراضي شاسعة موبوءة بحروب طائفية مستعرة وممولة من قبل دول عديدة. وأصبحت تواجه عدداً من الأعداء: الجيشين العراقي والسوري والجبهة الإسلامية وتحالف مجموعات جهادية والثوار السوريون، وكذلك الميليشيات الشيعية وقوات البيشمركة الكردية ـ جميعها منخرطة في جبهات قتال متعددة وبعضها أضعفه الفساد[1]. هذا التباين مهم ويشرح كيف استطاعت «الدولة الإسلامية» أن تشن حرب فتوحات تهدد بمحو الحدود الحديثة لمنطقة شاسعة جداً هي الشرق الوسط برمته وهذا أمر لم تحققه أية مجموعة مسلحة في السابق.

إنْ لم تكن قوة الدولة العسكرية والاقتصادية كفيلة باعتبارها نوعاً مختلفاً من المنظمات الإرهابية فإن ذلك النفي ينسحب أيضاً على ميلها

---

(1) في قلب تفكك الـ350.000 من القوات العراقية المسلحة القوية عندما هاجمت تكريت والموصل في يونيو/حزيران 2014 نجد أكثر من الجبن وعدم الولاء. ونجد أيضاً فساداً مستشرياً. كان القادة يسحبون رواتب لـ«كتائب وهمية» لم تكن موجودة ويقبضون الأموال عن 600 جندي ولم يوجد في الواقع سوى 200». وبالرغم من النفقات الكبيرة على الجيش التي وصلت إلى 41.6 مليار دولار في السنوات الثلاث الماضية، وأرسلت الوحدات إلى الجبهة دون ذخيرة لكل بندقية هجوم أربعة مخازن فقط. وقد صنعت مقاطع فيديو تقشعر لها الأبدان تظهر فيها السهولة التي كان قناصوها يجرحون ويقتلون الجنود».

http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/isis-caliphate-has-bagdad-worried-because-it-willappeal-to-angry-young-sunnis-95274393.html.

لارتكاب أفعال عنيفة همجية كقطع الرؤوس وما شابه ذلك. الأمر الذي صوّره الإعلام الغربي، على نحو مجانب للحقيقة، بأنه أثار صدمة قيادات القاعدة. أقول إن ذاك التصوير مجاف للحقيقة لأن خالد الشيخ محمد، العقل المدبر لهجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، كان قد سبق الدولة في التخطيط لارتكاب أفعال همجية مصداقها أنه الشخص المسؤول عن قطع رأس دانييل بيرل، الصحفي الذي كان يعمل في صحيفة وول ستريت جورنال عام 2002. وهو العمل الذي بث عبر الإعلام وعرّف العالم لأول مرة بهذا النوع من الأفعال الهمجية. وفي عام 2004، قامت مجموعة أبو مصعب الزرقاوي بقطع رأس نيكولاس بيرغ. وفي العام نفسه، نصب كمين لأربعة عاملين في شركة بلاك ووترز وسُحلت جثثهم المحروقة في شوارع الفلوجة. وقد مثل ذلك الحدث ذروة الشر، حسب اعتقاد كثيرين. وللأسف، فإن الأفعال العنيفة التي تقوم بها الدولة ليست فريدة في نوعها بل متسقة مع الأمثلة المذكورة أعلاه.

إذن، لمّت الدولة شعثها وبزغت كالعنقاء من تحت رماد الحرب على الإرهاب وجمر حروب الوكالة التي تفشت في أعقاب الحرب الباردة. لقد كشرّت الدولة عن أنيابها لتصبح ظاهرة ليست مختلفة تماماً عن الظواهر الإرهابية السابقة بل طفرة جديدة لذاتها القديمة. أما نجاحاتها فتتمحور في عدة عناصر أهمها:

- وجود عالم متعدد الأقطاب.
- مهارة استخدام التكنولوجيا الحديثة.
- محاولة براغماتية لبناء الأمة.

- فهم عميق لسيكولوجية المهاجرين المسلمين المنحدرين من أصول شرق أوسطية.

- التداعيات المتعلقة بردة فعل الغرب على أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وما عقبها من دفع أجزاء من الشرق الأوسط نحو التناحر الطائفي والحروب الأهلية.

إن تجاهل هذه الحقائق لا يؤدي فقط إلى التضليل أو السطحية بل إلى مكمن الخطر. «اعرف عدوّك» لا تزال المقولة الأهم في الحرب ضد الإرهاب.



الفصل الأوّل

من الزرقاوي إلى البغدادي

يرغمنا نجاح «الدولة الإسلامية» على التوقف لمحاسبة النفس. لقد حان الوقت لتحمل مسؤولياتنا والإعلان عن فشل أدوات مكافحة الإرهاب للحيلولة دون إقامة الخلافة. يحتاج العالم إلى نهج جديد لإيقاف تقدّم هذا الكيان السياسي العدائي لا سيما أنه يعكف الآن على إعادة ترسيم حدود الشرق الأوسط بالدّم. إن وضع استراتيجية للتصدي لهذا الخطر لا يمكن أن يغفل الحقائق الواضحة التي تفيد بأن إقامة الخلافة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتداعيات التدخل الغربي وسياساته المتبعة على مدى العقود الماضية في الشرق الأوسط.

إذا استطاعت «الدولة الإسلامية» أن تبني أمة واحدة في العراق وسورية فإن خطر ذلك الإنجاز سوف يتعدى الخارطة السياسية للبلدين. فلأول مرّة في التاريخ الحديث، سيكون بمقدور منظمة مسلحة أن تفي بهدف الإرهاب النهائي: خلق دولة خاصة بالمنظمة الإرهابية على أنقاض أمم موجودة. لن يتم الأمر عن طريق ثورة كما حصل في إيران بل من خلال حرب فتوحات تقليدية قائمة على تكتيكات إرهابية. وإذا ما نجحت الدولة في ذلك فإنها ستغدو النموذج الحديث للإرهاب[1].

---

(1) من أجل كل الكلام المنمق الخاص بالحرب عن الرعب كما أعلن في عصر الإمبريالية =

كيف وصلنا إلى هذه المرحلة؟ تكمن الإجابة المستفيضة في تقسيم بلدان الشرق الأوسط على يد القوى الاستعمارية السابقة بعد الحرب العالمية الأولى. أما الإجابة المقتضبة فتكمن في التقاء الضربات الاستباقية التي استهدفت العراق والحرب الأهلية التي اندلعت في سورية. فقد تمخض عن الأولى بزوغ نجم الرّاحل أبو مصعب الزرقاوي أحد أكثر الجهاديين المحدثين براعة وأكثر الاستراتيجيين غموضاً وسحراً. ذاك الرّجل الذي تحدّى قيادات القاعدة علناً والذي -كما سنرى- **أعاد بعث الصراع التاريخي الدموي بين السُّنة والشيعة** ووظفه كتكتيك رئيس لإحياء دولة لولادة الخلافة من جديد[1]. وفّرت سورية سانحة فريدة في نوعها، فقد كانت بمثابة منصة انطلاق لأتباع الزرقاوي ومن نسج على منواله. أولئك الذين تبنوا رسالته ورغبوا في تحقيق حلمه وعلى رأسهم أبو بكر البغدادي.

إرث الزرقاوي

ولد الزرقاوي، وهو من أصول بدوية، في حي فقير في مدينة الزرقاء، ثاني أكبر مدن الأردن، قبل سبعة أشهر تماماً من اندلاع حرب الأيام الست عام 1967. وعاش فترة شباب عاصفة كانت حُبلى بالمشاكل، وألقي القبض عليه في بداية العقد الثالث من عمره حيث أمضى خمس سنوات وراء القضبان تبنى خلالها السلفية الراديكالية. وهي عقيدة، كما سنرى، تدعو إلى الرفض التام للمثل الغربية وتأثيراتها. ومن الجدير بالذكر

= الأميركية الحديثة، حتى في العراق لم يتغلب الغرب على الإرهابيين الجدد مع تصور تكاملهم في أمتها، كما في حرب التغلب قبل الحديثة.

(1) جون غراي «وجهة نظر». و«ماذا يعني أن تكون عصرياً».

http://www.bbc.com/news/magazine-28246732.

أن «الدولة الإسلامية» اليوم تتبنى السلفية بحذافيرها. سافر الزرقاوي إلى أفغانستان فور إطلاق سراحه من السجن ليلتحق بصفوف المجاهدين، لكنه وصل متأخراً فالحرب مع السوفييت كانت على وشك أن تضع أوزارها.

وفي قندهار، عام 2000، التقى الزرقاوي بأسامة بن لادن للمرّة الأولى. وقد رفض حينها الأردني الشاب عرضاً من المجاهد السعودي يدعوه فيه للانضمام إلى القاعدة. لم يرغب الزرقاوي قتال العدو الأبعد المتمثل في الولايات المتحدة الأميركية. بل أراد أن يعلن الحرب على العدو الأقرب، الحكومة الأردنية ليؤسس بعدها دولة إسلامية في المنطقة. وهكذا، أقام الزرقاوي معسكراً تدريبيّاً متواضعاً، في هيرات، أفغانستان، بالقرب من الحدود الإيرانية وبدأ بتجهيز الانتحاريين ليدفع بهم للاضطلاع بمهمات انتحارية في الشرق الأوسط.

لقد تزامن بالفعل دخول الزرقاوي إلى الساحة العراقية مع اندلاع التفجيرات الانتحارية التي لم يسبق أن شهدها العراق. ففي عام 2003، انفجرت شاحنة كانت تحمل عبوات ناسفة في مقر الأمم المتحدة ببغداد وأودت بحياة رئيس الوفد الأممي وعدد من أعضائه. وبعد أيام قليلة، قاد ياسين جرّاد، وهو أبو زوجة الزرقاوي الثانية، سيّارة ملغّمة وفجّرها في مسجد الإمام علي (النجف). وقد أودى الانفجار بحياة 125 شيعيّاً من بينهم آية الله محمد باقر الحكيم، الزعيم الرّوحي للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية، وقد كان عائداً من إيران، بعد الإطاحة بصدّام حسين، ساعياً لقيادة المجلس لدفعه نحو نصر سياسي في عراق ديمقراطي[1].

---

(1) لورنس جوفي «ورقة نعي. آية الله محمد باقر الحكيم».

http://theguardian.com/news/2003/org/30/guardianobituraries.iraq.

غاب عن المحللين الغربيين في تلك الفترة إدراك الرابط بين الانفجارين. ففي أغسطس/آب من عام 2003، كان الاعتقاد السائد في الغرب أن الصراع في العراق هو صراع ثنائي بين قوات التحالف ومناصريهم من جهة وميليشيا مقتدى الصدر الشيعية والموالين لصدام من جهة أخرى. بيد أن الحركة الجهادية الدولية فهمت الرسالة تماماً ونشرتها. وقد أشار الزرقاوي بأن الصراع في العراق يدور على جبهتين. تستهدف الأولى قوات التحالف وتستهدف الأخرى الشيعة. وكان يعتمد في تكتيكه على إثارة الرعب من خلال العمليات الانتحارية.

منذ نهاية أغسطس/آب 2003 وحتى ديسمبر/كانون الأول 2004، الشهر الذي اعترف فيه أسامة بن لادن بالزرقاوي رسمياً كزعيم لتنظيم القاعدة في العراق، تزعم الأردني في تلك الفترة مجموعة أطلق عليها اسم «حركة التوحيد والجهاد» وما لبثت بعد فترة أن تحولت إلى «الدولة الإسلامية في العراق». لم يكن ابن لادن راضياً عن استراتيجية «الدولة الإسلامية في العراق» لا سيما محاولتها دق إسفين بين حركات التمرد السنية والشيعية لأنه لم يشاطر مخاوف الحركة إزاء احتمال تشكيل مقاومة وطنية متحدة وتحولها إلى جبهة علمانية تُهمّش المجاهدين. تأكدت مخاوف الزرقاوي في ربيع 2004 عندما فاز تمرد مقتدى الصدر باستحسان المتمردين السُّنة الذين ألصقوا صور الإمام على جدران أحيائهم. بدا وكأن ابن لادن كان مخطئاً في التقدير إذن. وفي تلك المرحلة بالذات قرر ابن لادن أن يدرج مجموعة الزرقاوي في خانة القاعدة وأطلق عليها اسم القاعدة في العراق وبذلك انضم إلى حرب العراق الطائفية.

استطاع الزرقاوي، كونه أمير القاعدة في العراق، أن يحصل على

العديد والعتاد ليشتبك مع القوات الأميركية، بينما حافظ على زخم العمليات الانتحارية ضد الشيعة. تلك العمليات التي كادت تدفع بالعراق إلى أتون حرب أهلية مستعرة. وقد حال دون ذلك مقتل الزرقاوي في غارة أميركية عام 2006 وأدى ذلك، في الوقت نفسه، إلى شلّ أنشطة تنظيمه مؤقتاً.

في أعقاب عام 2006 حصل أن شبّ صراع على الفوز بزعامة تنظيم القاعدة في العراق وفي الفترة ذاتها[1] أقنع شيوخ العشائر السنية ذويهم بالتخلي عن الجهاديين واعتبارهم أجانب أعداء[2]. وهكذا نشأ ما يُعرف بالصحوات السنية لمقاتلة القاعدة. وقد أدت زيادة أعداد القوات الأميركية، وفقاً لاستراتيجية الرئيس الأميركي آنذاك إلى إضعاف جميع المجموعات الجهادية في العراق. واستمرّ الوهن على هذا الحال حتى تسلم أبو بكر البغدادي زعامة ما تبقى من تنظيم القاعدة عام 2010 حيث أخذت الأمور تأخذ منحى آخر.

عادت المجموعة بزعامة البغدادي إلى اسمها الأصلي «الدولة الإسلامية في العراق»، واستأنفت قتال الأميركيين. وبدأت بالابتعاد رويداً رويداً عن القاعدة. فقد أدرك البغدادي أن سنة العراق يمقتون فرع القاعدة في بلادهم لا سيما بعد نشأة الصحوات، وبالتالي حاول متعمداً إظهار

(1) دافيد روز «رؤوس في الرمل».

http://www.vanityfair.com/politics/features/2009/05/iraq-insurgents 200905.

(2) غريغ برونو، «دور أبناء العراق: في تحسين حال الأمن».

http://washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2008/04/28/AR200 8042801120.html.

صورة محليّة وطنية لمجموعته. وأدرك أيضاً أن السُّنة يمقتون الحكومة الشيعية برئاسة المالكي أكثر من مقتهم للقاعدة[1]. تلك الحكومة التي اتبعت سياسات تمييزية علنية ضدهم موظفة استراتيجيات سياسية وصلت حد العنف. وهكذا عكف البغدادي أيضاً على استهداف الشيعة وأذكى بذلك نيران الحرب الطائفية.

وأصبح جلياً أن استراتيجيته في تلك الفترة لم تأت أُكلها. لأن «الدولة الإسلامية في العراق» كانت تنظيماً صغيراً هشاً لا يقدر على شيء. وبالتالي، ولى البغدادي وجهه شطر سورية وانطلق ليستغل الفراغ الحاصل هناك ليعيد استجماع قواه ويعزز تنظيمه.

أرسل البغدادي في عام 2011 مجموعة صغيرة من الجهاديين إلى سورية. وبينما ساروا من خلال طرق التهريب القديمة عبر صحارى شمال غرب العراق شكلوا بذلك طلائع «الدولة الإسلامية في العراق»حيث كانت مهمتهم محصورة في تقصي إمكانية أن يمثل النزاع السوري فرصاً ملموسة لتطور تنظيمهم عسكرياً. وقد عكفت الدولة بعدها على الانخراط في حروب الوكالة الدائرة في سورية وتعاظمت بذلك مهارات رجالها القتالية وحصلت أيضاً على الموارد المالية لإعادة بعث التنظيم من جديد ليس كإحدى التنظيمات المقاتلة فحسب بل كطرف رئيسي يسيطر على أراضي ينشر فيها معاقله ويملك ماكينة عسكرية كاسحة.

ويخلاف قادة تنظيم القاعدة الذين تجنّبوا فتح الأراضي وركّزوا على

(1) مات برادلي وعلي أ. نبهان «ضابط عراقي يأخذ تحولاً أسود للقاعدة».

http://www.online.wsj.com/news/articles/sB10001424052702304834704594054407673594 48.

العدو البعيد (الولايات المتحدة) شاطر البغدادي الزرقاوي اعتقاده بأن غياب قاعدة أرضية صلبة واسعة في الشرق الأوسط يسيطر عليها التنظيم قد يؤدي إلى خسارة المعركة. وقد راود البغدادي حلماً طموحاً مطابقاً للحلم الذي سعى إلى تحقيقه الزرقاوي: إقامة دولة الخلافة في بغداد من خلال حرب فتوحات ضد العدو الأقرب- النخبة الأوليغارشية الفاسدة التي حكمت سورية والعراق - الشيعة [1].

وقد انتهج البغدادي في البلدين نهجاً خطه الزرقاوي منذ سنوات يتلخص في شن حرب فتوحات تقليدية من منزل إلى منزل وشارع إلى آخر ومن قرية إلى قرية ومدينة إلى أخرى وتطبيق الشريعة الإسلامية على جميع سكان المناطق التي يحتلها تنظيمه. وقد بلغ البغدادي في العراق مبلغاً قصياً من خلال توظيفه لتكتيكات عسكرية طوّرها سلفه الزرقاوي، كحزام بغداد، وهذه لعمري استراتيجية أظهرت نجاعتها في إقامة الخلافة لاحقاً[2].

حزام بغداد

حزام بغداد هو الاسم الرمزي الذي أطلقه الزرقاوي على خطته لفتح

---

(1) الأوليغارشية تعني حكم القلة، هي شكل من أشكال الحكم بحيث تكون سلطة الحكم السياسية محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية. [الناشر]

(2) بيل روجيو: تحليل: تنشيط حلفاء ISIS لخطة معركة «أحزمة بغداد».

htt:/www.longwarjournal.org/archives/2014/06/analysis-isis-alliers-php.

بغداد. فعوضاً عن السيطرة على مركز المدينة، أراد الزرقاوي أن يعزل المدينة من خلال الاحتلال التدريجي للضواحي المحيطة بها.

خطط الزرقاوي، في البداية، لاستخدام معاقل «الدولة الإسلامية في العراق» للسيطرة على منافذ بغداد[1] وتمرير الأموال والأسلحة والسيارات المفخخة والمقاتلين إلى المدينة. وقد خطط أيضاً لقطع الطريق على الخطوط الجوية التي تسلكها المروحيات الأميركية من خلال زرع مضادات طيران على طول خطوط معروفة في منطقة الحزام المحيط ببغداد[2]. وقسم الحزام إلى خمسة أقاليم سرية: واحد في الجنوب يضم شمال محافظة بابل وجنوب محافظة ديالى وثانٍ في الغرب يضم شرق محافظة الأنبار ومنطقة ثرثار وثالث في الشمال يضم جنوب محافظة صلاح الدين ومدن كتاجي ورابع في الشرق يضم مناطق ريفية تحيط ببغداد وخامس يسمى «حزام ديالى» يضم بعقوبة والخالص[3].

بدأ مجاهدو الزرقاوي في بداية 2006 بتطبيق الخطة فاحتلوا الفلوجة وغالبية أراضي محافظة الأنبار. وتقدموا في شهري مارس/آذار وإبريل/نيسان باتجاه بغداد واحتلوا كرمة وأبو غريب. وأخيراً شنوا هجمات بالقاذفات في شمال محافظة بابل وجنوب بغداد. وهكذا أحكم التنظيم سيطرته على معظم الحزام وعزز من قوته في المعاقل السنية. لكن الأميركيين أرسلوا تعزيزات بواقع 130 ألف جندي تدفقوا إلى العراق لإنجاز مهمة استرداد البلدات المحيطة ببغداد بالإضافة إلى

---

(1) htt:/www.longwarjournal.org/archives/2014/06/analysis-isis-alliers-php..

(2) من المصدر نفسه.

(3) من المصدر نفسه.

ما كان يسمى بـ«مثلث الموت» جنوبي العاصمة. وبالشراكة مع تشكيلات الصحوات السنية وقوى الأمن العراقية وصلت أعداد المقاتلين إلى مئات الآلاف. استمرت العمليات لأكثر من عام استهدفت خلالها «مراكز القيادة والسيطرة التابعة «للدولة الإسلامية في العراق» (حيث كانت جزءاً من تنظيم القاعدة في العراق آنذاك) ومعسكراتها وقواعدها وأسلحتها ومصانع الأحزمة الناسفة»[1]. وهكذا أظهرت التعزيزات الأميركية في النهاية نجاعتها واحتفلت بنصر مؤقت.

وفي صيف عام 2014 أعاد البغدادي تركيبة جيش «الدولة الإسلامية» المنيع إلى سابق عهده إبان «الدولة الإسلامية في العراق» عام 2007 في نهاية عملية حزام بغداد. وبفعله هذا واقترابه من إعلان الخلافة أنجز البغدادي ما لم يستطع الزرقاوي إنجازه. أعني، إدراج حزام بغداد ضمن دولة جديدة. لذا، من غير المدهش أن يعتبر الكثير من السنة في العراق البغدادي و«الدولة الإسلامية» بمثابة طائر الفينيق الإسلامي الذي عاد ليطل برأسه من تحت رماد الجهاد الذي أرسى دعائمه أبو مصعب الزرقاوي في السابق.

البغدادي: النبي الجديد

رغم أن البغدادي لم يتسلم زعامة تنظيم القاعدة في العراق ليحل محل الزرقاوي إلا في عام 2010 أي بعد أربع سنوات من وفاة الأخير، إلا أن الرجلين كانا منهمكين في العملية ذاتها لسنوات طوال. فقد انضم

(1) البيت الأبيض: خطاب الرئيس للأمة 10 يناير/كانون الثاني 2007.
http://georgcwbush-whitehouse.archives/gov/News/raleases/2007/01/20070010.7.html.

البغدادي إلى حركة التوحيد والجهاد بعيد غزو العراق عام 2003. وكانت مهمته منحصرة في تهريب المقاتلين الأجانب إلى العراق. بعدها، أصبح أمير مدينة راوة، وهي بلدة تحاذي الحدود السورية، وترأس محكمة شرعية فيها كان قد أسسها بنفسه[1]. اشتهر البغدادي في تلك البلدة بالوحشية والشراسة حيث عكف على إطلاق أحكام بالإعدام العلني لمن يتورط في توفير الدعم لقوات التحالف التي تقودها الولايات المتحدة الأميركية. فمن خلال حكمه لتلك البلدة يتكشف للمراقب الفطن بذور إدارة البغدادي للخلافة بعدها بسنوات.

وكما فعل الزرقاوي سابقاً، قام البغدادي بمحاكاته في أسلوبه حيث ركّز على العمليات اليومية للتنظيم وتجنب نشر المواد الفيلمية أو الإعلانات السياسية. وهذا ما دأب عليه قادة الجهاد أينما حلّوا. ونحن نعلم بوجود صورتين فقط للبغدادي قبل أن يصبح خليفة المسلمين. إحداها تظهر رجلاً جدياً ذا ملامح حنطية ووجه مستدير والأخرى أصدرتها الحكومة العراقية في يناير/كانون الثاني 2014 تظهر شخصاً مقطب الحاجبين ملتح يلبس بذلة سوداء[2]. والصورة الأخيرة غير واضحة وتعتريها شقوق وكأنها صورة أخذت عن صورة أخرى. في تلك الفترة كان البغدادي ملثماً على مدار الساعة حتى أمام أعوانه الأكثر إخلاصاً مما دفعهم لتسميته «الشيخ

---

(1) بيتر بيومونت «أبو بكر البغدادي: زعيم مع الطموح لاستلام القاعدة».

http://www.theguardian.com/world/2014/jun/12/bagdad.abu.bakr.iraq-isis-mosul-jihad.

(2) متفرقات «نشرت إنتيريور صورة جديدة لقائد داعش: أبو بكر البغدادي».

http://www.shalaaq.com/sh2/index.php/news/iraq-nwes/71597-99-htm.l9inAzahik).

الشبح/غير المرئي». فالسرية التي تحيط بهالة الخليفة الجديد حتى الآن تعزز من هيبة شخصيته على عكس تبجح واستعراض السياسيين الغربيين والطغاة العرب في مراسيم مبهرجة تنتشر فيها صورهم في كل مكان.

إن ابتعاد البغدادي عن الأضواء ربما مرتبط بسجنه خمس سنوات في معسكر بوكا في جنوب العراق بعد اعتقاله من قبل القوات الأميركية عام 2005. وكما فعل سلفه الأردني، لم يطلب البغدادي الشهرة وتجنب الأضواء في السجن مضللاً بذلك الأميركيين الذين غفلوا عن قدرته الحقيقية في القيادة [1].

لكن البغدادي ذو خلفية تختلف تماماً عن خلفية سلفه المتواضعة. فقد ولد في سامرّاء عام 1971 ويزعم أنه ينحدر مباشرة من سلالة الرسول محمد. ووفقاً لترجمته الواسعة الانتشار في أوساط الجهاديين فإنه «رجل متدين من أسرة متدينة، وإخوته وأعمامه فيهم الأئمة والخطباء وعلماء اللغة والمنطق»[2]. والبغدادي نفسه يحمل شهادة جامعية في الدراسات الإسلامية من جامعة بغداد وكان قد عمل كإمام في العاصمة وفي الفلوجة قبل اعتقاله. وبوصفه حاصلاً على درجة علمية فإن ذلك يعزز من مصداقيته في تفسير الإسلام ويدفع بصورته ليصبح نسخة حديثة من النبي. والجدير بالذكر أن قلة من الجهاديين كانوا قد حصلوا على

---

(1) جنا ماك لوغلين «هل كان إرهابي العراق الأول الذي أصبح متطرفاً في سجن تديره الولايات المتحدة».

http://www.motherjones.com/politics/2014/07/was-coup-bucca-pzessu ne-cooker-extermism.

(2) متفرقات. «سيرة حياة الشيخ أبو بكر البغدادي».

http://archive.org/strean/theBiography/ofsheikhabBakrAlbagdadi-djvu.txt

شهادات جامعية في الدراسات الإسلامية وتمرسوا ثيولوجياً (دينيّاً) على تحويل ما درسوه إلى واقع معاش بخلاف البغدادي وعبد الله عزام مؤسس مكتب الخدمات في أفغانستان (مكتب الأفغان العرب).

خطب البغدادي - في ظهوره الرسمي الأول بعد اختياره خليفة للمسلمين - خطبة الجمعة داخل مسجد الموصل الكبير في الموصل وقد ارتدى ملابس تقليدية خاصة بالأئمة. لم توح خطبته بأنه شخص همجي إرهابي بل دلت على زعيم ديني حكيم براغماتي. قال الخليفة: «وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[1].

الدولة الإسلامية في العراق والشام

عزز البغدادي، عندما أصبح الخليفة، من بعض المعاقل في سورية وجذب إلى التنظيم مقاتلين أجانب مستخدماً حملة حرب دعائية ماهرة. يقول سيراز ماهر[2]، وهو زميل أول في المركز الدولي لدراسات الراديكالية في كينغز كوليج في لندن: «رحّب البغدادي بجميع المنضمين الجدد إلى التنظيم بينما لم تستقبل التنظيمات الأخرى كجبهة النصرة (التي يعتبرها

---

(1) ليزي ديردن: «أزمة العراق: قائد تظهر صورته للمرة الأولى بعد زمن من إعلان الخلافة الإسلامية».

http://www.independent.co.uk/news/wold/middle-east/iraq-crisis-isis-leader-pictuzed-for-first-tiue-after.declaringislamic-caliphate-95867.hml.

(2) سوهراب أحمري: «داخل عقل الجهاديين الغربيين».

http://online.wsj.com/articles/sohzav-ahmari-inside-themindofthewest ernjigadis:1409332541.

الكثيرون فرع القاعدة في سورية) المقاتلين الجدد خشية وجود مُندسّين في صفوفهم. فسهولة الانضمام إلى تنظيم الدولة الإسلامية وبراعة القائمين على ملفه الإعلامي عزز من شهرة التنظيم في الخارج لا سيما في أوساط مسلمي الغرب».

قامت «الدولة الإسلامية في العراق» عام 2013 بالتخطيط لإجراء عملية دمج تكتيكي مع أعضاء من جبهة النصرة. وقد تمخض عن ذلك التحالف تنظيماً جديداً عُرف باسم «الدولة الإسلامية في العراق والشام». كما أدى إلى انشقاق عدد لا بأس به من قادة النصرة ممن رفضوا عملية الدّمج. وقد أشعل ذلك أيضاً فتيل اقتتال داخلي مرير بين المقاتلين السنة في سورية.

ورغم أوجه الشبه الأيديولوجية بين «جبهة النصرة» و«الدولة الإسلامية في العراق والشام» إلا أن كثيراً من المراقبين نظروا إلى عملية الدمج شزراً. فبينما انهمكت جبهة النصرة في محاولة الإطاحة بالأسد، ركّزت «الدولة الإسلامية» على فتوحاتها التوسعية. تقول فرانشيسكا بوري (الصحفيّة الإيطالية صاحبة كتاب: لاغويرا دينترو- الحرب من الداخل) لم تحاول «الدولة الإسلامية» اجتياح أية أراضي خاضعة لقوات الأسد بل شنّت حربها ضد الثوار والمجموعات الجهادية الأخرى واتبعت استراتيجية الهجوم على مواقع تلك الجماعات لتنتزع بالقوة أراض شاسعة لتقيم دولة الخلافة عليها لاحقاً».

بالفعل، لم يخفِ البغدادي خطته الرامية إلى بناء دولة إسلامية داخل سورية بينما لم تعتمد جبهة النصرة خططاً طموحة. إلا أن كثيراً من السوريين اعتبروا تنظيم الدولة قوة أجنبية محتلة.

بالفعل، يعتبر كثيرون أن البغدادي زعيم مارق لأنه لم يوفر أحداً من خصومه حتى السنة. يقول مايكل برزدلاكي (صانع أفلام وثائقية منها: حلب: رسائل من الظلام)[1]: «يعتبر الجيش السوري الحرّ والجبهة الإسلامية والثوار الآخرون الدولة الإسلامية في العراق والشام عدواً لهم».

«القائد المارق» هو التعبير الذي استخدمته القاعدة لوصف الزرقاوي بعد وقوفه وراء المهمات الانتحارية الأولى ضد الشيعة عام 2003. وبعد 10 سنوات، استشاط قادة القاعدة غضباً بسبب عملية الدمج بين النصرة و«الدولة الإسلامية». فقد رفض الظواهري ذلك الدمج وأمر البغدادي بالعودة إلى العراق معلناً أن قادة النصرة هم الممثلون الحقيقيون للقاعدة في سورية.

وكما تجاهل الزرقاوي انتقاد تنظيم القاعدة عام 2003 كان ردّ البغدادي على الظواهري عام 2013 رداً شكل تحدياً سافراً للأخير، حيث قال: «لقد خُيّرت بين حكم الله وحكم الظواهري فاخترت حكم الله»[2].

أكّدت هذه الكلمات البسيطة أفول نجم تنظيم القاعدة مقارنة ببزوغ نجم تنظيم الدولة الإسلامية.

يعلق ريتشارد باريت، وهو رئيس سابق لقسم مكافحة الإرهاب في الجهاز البريطاني للاستخبارات الخارجية (جهاز الاستخبارات البريطاني): «تقوقع (الظواهري) على نفسه طيلة العشر سنوات الماضية في منطقة الحدود الأفغانية الباكستانية ولم يقم بشيء يذكر سوى إصدار

---

(1) مقابلة مع مايك برزدلاكي، 16 سبتمبر/أيلول 2014.

(2) أرين بكر «لماذا تخلصت القاعدة من امتيازها السوري القاتل».

http://time.com/3496/whyAl-Qaedakicked.out.its-deadly-syria.franchise/.

بعض البيانات والفيديوهات. بينما قام البغدادي بعمل مذهل فقد احتل مدناً وحرّك أعداداً غفيرة من التابعين وقتل الكثير من المناوئين في العراق وسورية بلا رحمة. وعليه، إذا كنت شخصاً يكترث بالشق العملي عوضاً عن النظري فستلتحق بالبغدادي بلا ريب»[1].

لا شك أن شهرة تنظيم الدولة تتأتى من جاذبية نجاحاته العسكرية الاستثنائية في وسط شعب مهزوم عاش في كنف حكم قمعي على أيدي زعماء عرب مدعومين غربياً لعقود من الزمن. وقد استاء الناس من فساد منظمة التحرير الفلسطينية وحماس وأصيبوا بالاكتئاب بسبب طول فترة التناحر الطائفي والحروب والعقوبات.

وعلى خلفية الحرب الأهلية في سورية وكون العراق يترنح بسبب التدخلات الغربية تجنب تنظيم الدولة إصدار الفتاوى وتقديم المواعظ الدينية (محاضرات)، بل اجتذب الأنصار بسبب وعوده في الخلاص السياسي من خلال إقامة دولة الخلافة. بيد أن قبول هذه الدولة الجديدة يكلف المناصرين تكلفة باهظة في بحثهم عن حل سياسي دائم وينهي عقوداً من الحروب والدمار.

فهذا يتطلب من رعايا الدولة قبول القواعد الحازمة والعدالة الصارمة وتصنيف النساء كمواطنات من الدرجة الثانية. ومن نافلة القول إن حرب التنظيم ضد الطوائف الأخرى يظهر أن أتباع الطائفة الشيعية أو غيرها لا مكان لهم في الدولة المستقبلية إلا إذا اعتنقوا المذهب السلفي.

---

(1) بول كرومبتن «نهوض الخليفة الجديد: الزعيم أبو بكر البغدادي».

http://english.alarabiya.net/en/perspective/profiles/2014/06/30/The.rise.of.the.new.caliph.isis.chief.Abu.Bakr.al.Baghdadi.html.

رغم وحشية التنظيم يبدو أنه وضع برنامجاً يلقى صدى إيجابيّاً في أوساط السنة المضطهدين.

هذا الكيان الجديد هو دولة وهمية ليس إلا. أي كيان يمتلك بنية تحتية اجتماعية اقتصادية لكنه يفتقد الاعتراف السياسي والإجماع الشعبي الذي تحظى به أية دولة حقيقية.

لكن البغدادي رغم إعلان الولايات المتحدة في خريف 2014 عن برنامج قصف جوي يمتد لثلاث سنوات، يحاول تغيير الوضع القائم ويسعى للحصول على الإجماع الشعبي والاعتراف السياسي، وهذا الهدف يبدو أنه على وشك التحقق.

الفصل الثاني

إرهاصات الخلافة

لا تشكل الخلافة المحاولة التاريخية الوحيدة لمنظمة مسلحة سعت لبناء دولتها الوهمية الخاصة؟. فقد بنت منظمة التحرير الفلسطينية منذ عقود دولتها الوهمية بنجاح بعد استقلالها عن ممّوليها وخصخصة الإرهاب بطريقة فاعلة. وعلى نحو يدعو للمفارقة، دُهش الإسرائيليون من إنجاز المنظمة في الماضي كما دُهش الغرب في الحاضرعندما اكتشف أن «الدولة الإسلامية» استقلت بدورها أيضاً عن مموليها في صيف 2014. وعلى خلفية مزاعم خبراء مكافحة الإرهاب العبثية في أنهم لم يتنبؤوا ببزوغ نجم «الدولة الإسلامية» في سماء المجموعات الجهادية الأخرى رغم نجاحها في حرب الفتوحات ونجاحها أيضاً في إدارتها الموارد المالية، نقول إن تاريخ استقلال منظمة التحرير الفلسطينية مالياً أمرٌ يجب استذكاره.

انتفض الفلسطينيون من سكان غزة والضفة الغربية في كانون الأول/ديسمبر عام 1987. وقد أفضت الانتفاضة الارتجالية إلى تحول واضح في سياسة إسرائيل، إذ لم تعد الحكومة الإسرائيلية تسمح بتدفق الأموال «غير الرسمية» إلى الأراضي المحتلة وأمرت الشرطة بمنع تهريب الأموال من كافة نقاط العبور. وفي السنة الموالية، صُودر ما يقارب 20

مليون دولار أميركي من الأموال النقدية. لكن ذلك لم يؤثر كثيراً في الحدّ من دعم منظمة التحرير الفلسطينية الاقتصادي للأراضي المحتلة، لأن الأموال التي كانت تجنيها المنظمة بطرق شرعية، وفي معظم الأحيان بالغة التعقيد، كانت عديدة [1].

وما اكتشفه الإسرائيليون بعد ذلك بفترة وجيزة هو أن عرفات كان قد حوّل عصبة فضفاضة من المجموعات المسلحة ـ الممولة من مصادر مختلفة ـ إلى منظمة اقتصادية بالغة التعقيد وممولة ذاتياً[2]، وقد تصرّفت المنظمة كدولة الأمر الواقع في الأراضي التي كانت تسيطر عليها بفضل عدد متنوع من الأنشطة الشرعية وغير الشرعية بدأت بتصدير المنسوجات وانتهت بتجارة المخدرات. وقد ولّدت منظمة التحرير إيرادات سنوية فاقت الناتج الإجمالي المحلي لعدد من الدول العربية.

أدار عرفات باعتماده على تلك الأموال كلاً من غزة والضفة الغربية وتحرّر بذلك من قبضة مموليه السابقين، إلا أنه لم يُعترف بالأراضي المحتلة سياسيّاً ولم يُعترف بالمنظمة كدولة على نسق سائر الدول الأخرى رغم وجود المال، بل بقيت دولة وهمية تمتلك بنية تحتية وطنية وتفتقر إلى الحق في تقرير المصير الذي يشكل أساس بناء الأمة والدولة، لأنه إذا ما اتبعنا المعيار الطبيعي في نموذج بناء الأمة فإن الاقتصاد والبنية التحتية للدولة الحديثة تحتلان أولوية تلي أولوية حق تقرير المصير الذي

(1) دونالد نيف «الانتفاضة الأولى تثور وتجبر إسرائيل على الاعتراف بالفلسطينيين».

http://www.ampalastine.org/index.php/history/the-intifadas/364.the.first.intifada.erupts.forcing.israel.to.recognize.palastinians.

(2) لوريتا نابوليوني: الرعب مدموجاً (نيويورك seven stories press 2005).

يفضي إلى التكامل السياسي. أما نموذج الدولة الوهمية الذي أسسته منظمة التحرير وتبنته اليوم «الدولة الإسلامية» فإن الاقتصاد والبنية التحتية يسبقان الاعتراف السياسي في سلم الأولويات. وهكذا تبقى مسألة حق تقرير المصير حقيقة طارئة مُحيّرة في معظم حالات الدول الوهمية لكنها ليست كذلك كما سنرى في توجه «الدولة الإسلامية» المستقبلي.

النسخة الحديثة من حروب الوكالة

نشأت الدول الوهمية خلال الحرب الباردة كنتيجة لحروب الوكالة، فقد موّلت الدول أطرافاً خارج نطاق الدولة شنت حروباً بالوكالة ضد أطراف أخرى، وقد نسجت بعض تلك المنظمات المسلحة على منوال منظمة التحرير الفلسطينية بغية تحقيق الاستقلال الاقتصادي وبناء البنية التحتية الخاصة بها. وقد شهدت العراق وسورية منذ عام 2011 تحولات شبيهة في المنطقة التي مزّقتها الحروب. وكما وظّف عرفات خلال الحرب الباردة التبرعات التي حصل عليها من الممولين العرب كبذور لرأسمال تنامى يوماً بعد يوم وحرّر منظمته من الرعاة بعد حين، فعل البغدادي الشيء ذاته. إذ استغل الدول العربية التي دعمته مالياً بهدف إسقاط نظام الأسد وسعى إلى إرساء دعائم اقتصادية لمجموعته وشن حرب فتوحات توسعية من دون الاحتكاك بنظام الأسد. والاختلاف اليوم هو الطيف الواسع من الدول الداعمة الممولة المتاحة للمجموعات التي تخوض حروباً بالوكالة وتفرّع مصالح الرّعاة وتضاربها.

فقد كان من السهل نسبياً في سورية لأية مجموعة جهادية أن تختار من بين الممولين جهة دون أخرى وكأنها تتسوق في محال لبيع الرعاة والممولين، أما خلال الحرب الباردة فقد كان خيار التمويل مرتبطاً

بجهتين لا ثالث لهما: الاتحاد السوفييتي أو الولايات المتحدة الأميركية. ومع تحول العالم إلى عالم متعدد الأقطاب اكتظ سوق الممولين وحوّل حروب الوكالة إلى شيء شبيه بحلبة رهانات، فعندما همّ البغدادي في عام 2010 في البحث عن ممولين اصطفّ الكويتيون والسعوديون والقطريون ووفرّوا خلال تلك العملية «للدولة الإسلامية» بطريقة غير مباشرة سبيلاً من الأموال للحصول على معدات عسكرية غربية، وهذا ترف لم يكن متاحاً لعرفات من قبل[1].

ولكن ما لم يتغير هو الصعوبة المتزايدة التي تشكلها الأطراف المنهمكة في حروب الوكالة للتوصل إلى حلول سلمية للنزاعات، وهذا ينطبق تماماً على حروب الوكالة الحديثة لا سيما عبثية تضارب المصالح بين الممولين. ففي سورية دعمت إيران نظام الأسد غالباً من خلال ربيبها حزب الله اللبناني بينما دعم السعوديون والكويتيون والقطريون طيفاً واسعاً من المجموعات السنية المتمردة بما في ذلك «الدولة الإسلامية» وذلك لتقويض قوة إيران في المنطقة. لكن المفارقة أن حزب الله كان يسلح حماس ويدعمها مالياً في الصراع الفلسطيني رغم أنها سنية المذهب وكانت في السابق تُمول من قبل السعودية [2]. استخدمت حماس عام 2014 طيارات إيرانية من دون طيار (زعمت أنها صنعتها في غزة)

---

(1) حنا علام «تقارير تبين كيف أن المتطرفين العراقيين قاوموا جهود الولايات المتحدة ضد الرعب».

http://www.mcclatchydc.com/2014/06/23/231223/records-show-now-iraq.extremists.html.

(2) برنارد هيكل «عدو عدوي لا يزال عدوي».

http://www.nytimes.com/ref/opinion/26haykel.html.

وصواريخ سورية طويلة المدى (ربما زوّدتها بها «الدولة الإسلامية») لاستهداف إسرائيل.

ولكي يزداد المشهد تعقيداً زوّدت موسكو نظام الأسد بالسلاح بينما زوّدت واشنطن الثوار المناوئين للأسد بالسلاح الذي وعلى نحو يدعو للسخرية تصادره «الدولة الإسلامية» بعد كل نصر. ففي إبريل/نيسان عام 2014، كتبت صحيفة التايم «يستخدم المقاتلون السوريون الآن أسلحة أميركية مضادة للمدرعات ضد قوات الأسد. ويقول الخبراء إنه من غير المرجح أن تصل الأمور إلى مستوى التوتر الذي نشهده وتدخل تلك الأسلحة إلى سورية من دون موافقة الولايات المتحدة»[1]. وفي العاشر من سبتمبر/أيلول من العام نفسه، أعلن الرئيس أوباما في خطاب وجّهه للأميركيين أنه سيقصف «الدولة الإسلامية» في سورية. وردّت دمشق مدعومة بموسكو بالقول إن فعل ذلك من دون موافقتها سيشكل اعتداءً على سورية. لكن حروب الوكالة الحديثة تذوب فيها التحالفات وتتبدل بين ليلة وضحاها.

أما الحيز الدبلوماسي الذي تتحرك فيه جميع هذه الأطراف فإنه أيضاً يتغير ويتبدل باستمرار ويفضي في بعض الأحيان إلى نتائج عبثية. ففي أغسطس/آب عام 2014 تحالف حزب العمال الكردستاني مع إخوانه من البيشمركة بهدف قتال «الدولة الإسلامية» التي كانت تتقدم في إقليم شمال العراق الذي يتمتع بالحكم الذاتي. وقد ساعدت أميركا البيشمركة

---

(1) أرين بكر «يبدو أن الثوار السوريين يملكون نوعاً جديداً من الأسلحة الأميركية المضادة للدبابات».

http://time.com/57313/syrian.rebels.are.seen.with.u.s.made.weapons/.

في هذه الأثناء من خلال توجيه ضربات جوية أيضاً. أما نتيجة الأمر الواقع فتمثلت في التعاون بين حزب العمال الكردستاني والولايات المتحدة والتقاطع في مصالحهما رغم أن حزب العمال الكردستاني مصنف على لائحة الإرهاب الرسمية في الولايات المتحدة. وكان الأوروبيون قد قبلوا بدورهم تسليح القوات الكردية وبالتالي فهم فعلياً يقاتلون جنباً إلى جنب مع حزب العمال الكردستاني، ينطبق هذا أيضاً على تقاطع المصالح بين حزب العمال الكردستاني من جهة وأنقرة من جهة أخرى. فهما في خندق واحد رغم أن الحزب يمثل العدو التاريخي للدولة التركية التي تشكل جزءاً مهماً من التحالف الكبير الذي استحدثه أوباما لإلحاق الهزيمة بـ«الدولة الإسلامية»[1].

استحدثت الولايات المتحدة الأميركية نهاية صيف 2014، تحالفاً كبيراً تحت مظلة حلف شمال الأطلسي الناتو بهدف قتال «الدولة الإسلامية». وقد يشي ذلك بانطباع مفاده أن «الدولة الإسلامية» توحد الأعداء القدامى والجدد ضدها وأن وقت التحالفات اللاعقلانية قد ولى من دون رجعة. لكن الحقيقة مغايرة تماماً، ففي منتصف سبتمبر/ أيلول من العام نفسه لم توجه دعوة لإيران أو لسورية للاشتراك في مؤتمر باريس لأن السعودية وقطر بدا أنهما اعترضتا على دعوتهما، أما المؤتمر فلم يفض إلى وضع أية استراتيجية جديدة للتصدي لمشاكل المنطقة، وانقلب ليصبح فرصة أخرى لالتقاط صورة جماعية لقادة العالم الممثلين للتحالف.

(1) إريكا سولومون، دانيال دومبي «إرهابيون عازمون على القتال ضد».

http://www.ft.com/s/0/4a6e5b90-2460lle4.be8e.00144feabdco.html#ax 223ATSuuwooo.

بالفعل لم توافق الدول العربية أو دول الناتو رسمياً على إرسال قوات لقتال «الدولة الإسلامية»، بل على العكس استمرت تلك الدول في أنشطتها الداعمة لفئة دون أخرى من خلال حروب الوكالة للحفاظ على مصالحها الخاصة، والمفارقة أن التحالف العظيم لم يفلح في ايقاف شلالات الدماء بل يجازف في احتمالية تعزيز قائمة الممولين بأسماء بلدان أخرى ثرية.

يستخدم نظام الأسد أيضاً مجموعات تعمل لحسابه بالوكالة لتقاتل الثوار والجهاديين وتقمع السكان المحليين، فقد انتشر عسكريون إيرانيون ومقاتلو حزب الله في سورية عوضاً عن الجيش السوري الفاسد. تقول فرانشيسكا بوري: «عشت في جنوب لبنان في مارس/آذار عام 2012 وفي كل أسبوع كانت تقام جنازات لقتلى حزب الله القادمين من سورية»[1].

وعلى تلك الخلفية ربما استمر البغدادي، بذكاء، في استغلال المفارقات السياسية لحروب الوكالة الحديثة مُظهراً لغاية الآن فهماً استثنائياً لرغبات مموليه ووجهات نظرهم، ومستغلاً انتشار مجموعات الثوار والمجموعات الجهادية الصغيرة لتعزيز حجم منظمته من خلال الاندماج معها أو الانتصار العسكري عليها، لا سيما المجموعات السنية الجهادية المنافسة. يقول ثائر سوري سابق كان قد فرّ إلى تركيا: «ينتقل المقاتلون في حلب وسورية على العموم من مجموعة مقاتلة إلى أخرى، وقد شكلت «الدولة الإسلامية في العراق والشام»عامل جذب للكثيرين بسبب تنظيمها الأفضل وفاعليتها مقارنة مع المجموعات الأخرى، ويبدو أن مقاتليها مدربون على نحو أفضل أيضاً. عليك أن تفهم أن معظم

---

(1) مقابلة مع فرانشيسكا بوري، 15 سبتمبر/أيلول 2014.

المشاركين في هذه الحرب لم يتمرسوا على القتال من قبل، فهم من فئات عمرية صغيرة من سورية وخارجها من كافة أرجاء العالم، ويتحمس الأجانب بالذات إزاء فكرة خوض غمار الحرب، لكنهم لا يعرفون كيفية التعامل مع السلاح، لا يستطيعون إطلاق النار، ومن بين جميع تلك المجموعات تظهر «الدولة الإسلامية» بصورة أكثر مهنية وحرفية من غيرها إذ يبدو أنها مصممة على السيطرة على أهداف رئيسية منتقاة بعناية، وإذا كنت راغباً في القتال فمن الحكمة أن تنتمي إلى الأفضل، أعني «الدولة الإسلامية»[1].

في الفترة ما بين عامي 2011 و2014 استطاع البغدادي أن يركز دعائم معاقله في سورية وذلك من خلال فتحه لأراضٍ واسعة لأنه فهم تماماً أن أي تدخل دولي في سورية غير وارد البتة. وقد استخدم على نحو يدعو للتعجب أموال الممولين العرب لمهاجمة مواقع منافسيه من الثوار والسيطرة على أراضيهم. وبينما أدرك طول أمد الحرب السورية سعى إلى السيطرة على قطاعات واسعة من سوق السلاح فيها.

ومن الواضح أن نجاح «الدولة الإسلامية» في استغلال حروب الوكالة الحديثة في الشرق الأوسط يعود إلى التزامها اللعب على التناقضات في عالم متعدد الأقطاب في بيئة تلت انتهاء الحرب الباردة. ومن غير المرجح أن يتغير هذا الأمر حتى مع تشكيل تحالف كبير، ومصداق ذلك هو استثناء إيران من التحالف، وهي راعٍ رئيسي لنظام الأسد، وعدم وجود استراتيجية موحدة. بالفعل تشرح هذه التناقضات مدى الصعوبات التي تعاني الإدارة الأميركية منذ عام 2011 حين سعت

(1) مقابلة مع الثائر السوري السابق، 10 أغسطس/آب 2014.

في حشد التأييد لتشكيل أي نوع من التحالف في المنطقة للتصدي لموضوع تغيير النظام في دمشق والصعوبات التي شكلها إعلان الخلافة مؤخراً. كما سنرى في الفصل الأخير، فإن التحالف العظيم لم يحل تناقضات السياسة الخارجية الأميركية، تلك التناقضات التي تعوق عملية الوصول إلى حل ناجع لمشاكل الشرق الأوسط.

ما يتجاهله الغرب بسبب جهله أو عدم رغبته هو الفوضى العارمة التي تعصف بشمال سورية بسبب حروب الوكالة الممولة من العديد من الدول. تقول فرانشيسكا بوري الصحفية التي بقيت في حلب بمفردها لفترة طويلة: «لقد تفكك المجتمع، ومن كان بمقدوره الفرار فعل ذلك أما من بقي فينتمي إلى فئة الفقراء المعدمين أو الطاعنين في السن الذين لا يقوون على الفرار، فما هو قائم في شمال سورية الآن لا يشبه إطلاقاً ما كان قائماً قبل الحرب الأهلية ولا يمثل البتة الشعب السوري الذي كان يقطن تلك المنطقة. فأولئك الذين ينهبون السكان المحليين هم في حقيقة الأمر عصابات إجرامية مسؤولة أيضاً عن خطف الغربيين لا سيما الصحفيين وعاملي الإغاثة»[1].

يشبه ذلك السيناريو سيناريوهات أخرى نجدها في مناطق أخرى في العالم تكون فيها سلطة الدولة، التسلطية عادةً، قد تفككت وأحدثت بالتالي فراغاً سياسيّاً تملؤه منظمات مسلحة طائفية تلجأ إلى العنف. وفي جو الضياع والفوضى يغيب المجتمع وتحلّ حرب طويلة مستمرة ما قبل الحداثة. تتابع بوري فتقول: «يعتبر أمراء الحرب داخل وخارج حلب السلطة الأولى والأخيرة وهذا ينطبق أيضاً على «الدولة الإسلامية»،

(1) مقابلة مع فرانشيسكا بوري، 16 سبتمبر/أيلول 2014.

فولاء المقاتلين في نهاية الأمر يولى لقائدهم المباشر وليس لقيادة المنظمة»، ولكن بخلاف جميع المجموعات الأخرى توفر الخلافة بنية إدارية وعسكرية هرمية تراتبية تخفف من خطر انحدار كتائبها إلى مستوى الميليشيات أو المجموعات الإجرامية رغم أن البنية لا تزال بدائية.

وكما هو الحال في نيجيريا أو الساحل أو أفغانستان، يشكل الرهائن سلعة نفيسة، وكما جرى الحال في لبنان في تسعينيات القرن الماضي، تُباع هذه السلع مرّات عديدة في سوق تغصّ بالمجموعات الإرهابية والإجرامية. ويؤكد الأسلوب المتبع في خطف الصحفيين على طبيعة النزاع الطائفي ما قبل الحداثة. تشرح فرانشيسكا «معظم الزملاء الذين خطفوا كانوا يسافرون برفقة حرّاس وسائقين ينتمون إلى إحدى المجموعات المسلحة العديدة ومن ثم يختطفون عند نقطة تفتيش تابعة لمجموعة مسلحة منافسة في منطقة تنقسم فيها الولاءات بحسب المجموعة، كنت شخصياً محظوظة لأنني اعتمدت على حماية القاعدة وتنقلت في منطقة يسيطر عليها تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام. وقد أخفيت هويتي أيضاً إذ تظاهرت بكوني لاجئة سورية ولم أحمل قلماً وكنت أغطي جميع أجزاء جسدي من الرأس إلى القدم».

أما الممولون الذين يشاركون في عمل وضيع كاختطاف البشر، فإنهم يدفعون أموالاً لقاء الفدية ليغطوا على تمويلهم تلك الجماعات. ويبدو أن ذلك ينسحب على مبلغ الـ20 مليون دولار الذي دفعته قطر لجبهة النصرة لإخلاء سبيل خمسة وأربعين جندياً من جزر الفيجي الذين تم اختطافهم في هضبة الجولان[1].

---

(1) Opposizionne siriana m Qatar ha pagato riscattodi 20 milioni di dol- =

أضف إلى ذلك أن الرأي العام العالمي لا يميل إلى الموافقة على أي تدخل شبيه بالتدخل في ليبيا، فقد برهن الفشل الذريع لحرب بوش وبلير في العراق أن التدخل العسكري ليس الحل لإحلال السلام في الشرق الأوسط. بل على العكس، قد يؤدي التدخل إلى صناعة وحوش فرانكيشتاين على نسق «الدولة الإسلامية».

تظهر «الدولة الإسلامية» فهماً عميقاً لمدى إحباط الرأي العام الغربي عندما يواجه الوضع في الشرق الأوسط. إن فيديوهات الصحفي البريطاني المختطف جون كانتايل[1] ترمي إلى نبذ سياسة الكيل بمكيالين التي تتبعها الحكومات الغربية في التصدى لظاهرة المختطفين. فبينما تفاوض جميع الحكومات لإطلاق سراح رهائنها، ترفض الحكومتان الأميركية والبريطانية فعل ذلك. ويبدو أن البغدادي وأتباعه يعرفون تماماً خصوصيات النظام العالمي الحالي التي تختلف تماماً عما كانت عليه إبان الحرب الباردة. والطريقة التي يتبعها البغدادي للانتقام من عدو عسكري متفوق تكمن في فضحه أمام الرأي العام العالمي. وهم أيضاً يعلمون أن حروب الوكالة في العراق وسورية سوف تنقلب سلباً على مموليها وتضعف دولهم. ويبدو أن القوى الغربية والعربية في الوقت الراهن، ليست على دراية بجميع هذه التطورات.

= lariperrilascio caschi bluda al-NusraLa Repubblica, 13 September 2014 (in Italian).

(1) Il fatto quotidiano, ISIS Nuovo video L'ostaggio John Cantlieai media, Dite la verita su stato Islamico».

http://www.ilfattoquotiano.it/2014/09/18/isis.nuovo.video.lostaggio.john.cantlis-ai-media.dite.laverita.sullo.stato.islamico/1125414(in italian).

خصخصة الإرهاب

إن البرهان الأفضل لكون حروب الوكالة وسيلة غير ناجعة لبناء الأمة يمكن أن نجده في نجاحات «الدولة الإسلامية». فبخلاف المجموعات الممولة الأخرى التي انخرطت في محاولة الإطاحة بنظام الأسد في دمشق، استطاع مقاتلو البغدادي أن ينتزعوا معاقل لهم تمتد على أراضٍ شاسعة في سورية والعراق.وكما علّق جندي سابق في مشاة البحرية الأميركية في صحيفة النيويوركر «تزامنت زيارتي مع اليوم الذي انتزعت فيه الدولة الإسلامية في العراق والشام مدينة أعزاز من قبضة كتيبة عاصفة الشمال التابعة للجيش السوري الحرّ (...) ومن خلال مشاهدتي تلك، يبدو أن «الدولة الإسلامية» على نحو لا يقبل الدّحض، رغم وصفها بمجموعة ثورية في الحرب الأهلية السورية، لم تعتبر الإطاحة بنظام الأسد هدفاً رئيسياً لها، لأنها لو جعلت الإطاحة بالأسد في رأس سلم أولوياتها لكانت وفّرت الموارد التي بدّدتها في السيطرة على أعزاز المدينة التي أحكم الثوار قبضتهم عليها منذ مارس/آذار عام 2012، فحرب «الدولة الإسلامية» لم تكن جزءاً من الثورة بل حرب فتوحات خاصة باستراتيجيتها[1].

إن سرّ نجاح «الدولة الإسلامية» يكمن في سرعة خصخصة الإرهاب مقارنة مع مجموعات أخرى كمنظمة التحرير الفلسطينية والجيش الجمهوري الإيرلندي. فقد حصلت «الدولة الإسلامية» على استقلالها

---

(1) إيليوت أكيرمان «مشاهدة تترعرع حيث قاتلنا سابقاً».

http://www.newworker.com/news/news-dest/watching-isis-flourish.where.we.once.fought.

المالي بسرعة فائقة تثير التعجب ولم يعترض معترض في الواقع على هذا التحول في الإدارة الاقتصادية. فالحقيقة أن ممولي «الدولة الإسلامية» لم يحركوا ساكناً بل عجزوا عن منع هذا التحول لأنهم لم يجدوا وكيلاً قوياً قادراً على تحديها. فقد أتى انتشار المجموعات الممولة بمردود عكسي وأنتج عدداً كبيراً من المنظمات المسلحة الصغيرة الضعيفة. وفي خضم هذا التبعثر والانقسام في صفوف الجهاديين والثوار أصبح من السهل على «الدولة الإسلامية» شن حرب الفتوحات والاستيلاء في أقل من سنتين على أراضٍ واسعة ومناطق استراتيجية غنية بالموارد الطبيعية كآبار النفط في شرق سورية، تلك المناطق التي كان يسيطر عليها في الغالب مجموعات صغيرة الحجم من الثوار والميليشيات وأمراء الحرب.

وقد ساهم في استقلال «الدولة الإسلامية» مالياً التحالفات الذكية التي عقدها البغدادي مع القبائل السنية المحلية بهدف استغلال الموارد الطبيعية المذكورة آنفاً. وقد تضافرت جهودهم في استخراج النفط وتهريبه وبيعه في بعض الأحيان للحكومة السورية، وبفعله هذا استبق البغدادي أية معارضة من قبل السكان المحليين وأظهر تنظيمه كقوة أكثر نزاهة وعدلاً من نظام الأسد. أما سياسيّاً فقد استطاع أن يتعاون مع الزعماء المحليين واستدرجهم إلى حضن الخلافة كشركاء لا كرعايا خاضعين بل كمواطنين في دولة حديثة. وقد أتاح ذلك «للدولة الإسلامية» النمو على نحو مضطرد إذ تحسنت سمعتها في صفوف المقاتلين وتعزز مطلبها السياسي في إعادة إحياء الخلافة. وعلى تلك الخلفية، من الخطأ الجسيم اعتبار المناطق والمعاقل التي تسيطر عليها الدولة مجرد قواعد عسكرية

بل ركائز ضرورية لدولة إسلامية حديثة تسعى لتعزيز شرعيتها من خلال التوافق المحلي في المناطق التي احتلتها من خلال شن حرب فتوحات.

رغم أن الدول الوهمية التي تدار من قبل مجموعات مسلحة قد تجاهلت مساهمة السلطات المحلية، إلا أن «الدولة الإسلامية» كانت سبّاقة في وضع هذه الاستراتيجية حتى قبل انتخاب البغدادي كخليفة. فبينما تقدمت باتجاه بغداد في صيف 2014، شنت «الدولة الإسلامية» هجوماً على مصفاة بيجي للنفط، وهي الأكبر في البلاد، واستهدفت في الوقت نفسه سدّ حدّيثة على نهر الفرات في شمال غرب العراق وكذلك أجزاء من خط أنبوب نفطي يصل إلى تركيا بقدرة إنتاجية تقدر بـ600 ألف برميل يومياً. وقد تعطل العمل فيه منذ مارس/آذار 2014 وما زال حتى كتابة هذه السطور. وكما هو الحال في سورية شاطرت الدولة هذه الموارد في العراق مع المجتمعات السنية المحلية والقبائل التي تعامل معها النظام الحاكم بعنصرية وتمييز. وهكذا لم تمنع «الدولة الإسلامية» نشوء معارضة فحسب بل اكتسبت دعم السكان المحليين وتوافقهم على حكمها.

لقد اعتمد البغدادي في جميع معاملاته مع القبائل السنية العراقية تكتيكات دبلوماسية حديثة استثنائية لكسب دعمهم، ففي الأنبار تجنب البغدادي استحضار الذكريات المؤلمة التي خلفتها هجمات تنظيم القاعدة على من شارك في الصحوات، فلم يقم مقاتلو البغدادي بإلحاق الأذى بالعلماء ورجال الدين أو قبائل الأنبار بما في ذلك من شكّل قوات الصحوات أو حتى من شارك في الشرطة العراقية. وعندما رفضت القبائل رفع راية «الدولة الإسلامية»في الفلوجة أمر البغدادي أتباعه بالانصياع لطلب القبائل وعدم رفع العلم في الفلوجة وعدم السعي لإقناع المقاتلين

من المجموعات المسلحة الأخرى للانضمام إلى صفوفها...لكن العلم ظهر في بعض المناسبات لا سيما عندما خطفت الدولة وقتلت عدداً من الجنود العراقيين في منطقة البوبالي في شمال الفلوجة في منتصف يناير/ كانون الثاني عام 2014. وهكذا برهنت سياسات البغدادي في استرضاء سكان الأنبار عن حكمة براغماتية (ذرائعية) كانت زعامة تنظيم القاعدة تفتقدها في السابق[1].

إن رغبة البغدادي في مدّ الجسور وبناء تحالفات مع القبائل السنية المحلية يشكل جزءاً من استراتيجيته لتسريع عملية الانفكاك عن ممموليه والتحرر منهم، لكن الاستقلال المالي لا يتولد حصراً من خلال الرغبة في التحرر من الممولين الأجانب بل من خلال خصخصة الإرهاب الذي يوفر «للدولة الإسلامية» أدوات ترسخ بواسطتها ولاء المقاتلين. أعني أن البغدادي سعى للاستقلالية المالية وجعلها كنبتة باسقة طيبة منيعة على التسوس تدرأ الفساد في صفوف المقاتلين. فالفساد هو سبب تصدع العديد من المنظمات المسلحة وجميع نظم الحكم العربية من دون استثناء. وكما هو معروف، فإن التمويل يؤدي إلى انتشار الرشوة في صفوف المستفيدين.

نستطيع استقاء درس بليغ من تاريخ سقوط عرفات كنتيجة لتضخم خزائن منظمة التحرير الفلسطينية. فبحلول الوقت الذي وصلت فيه المنظمة إلى ميزانية سنوية قدرت بواقع 8 إلى 12 مليار دولار أميركي،

---

(1) قائد البغدادي يثبت أنه عدو مخيف».

http://www.al.monitorcom/pule/originals/2014/02/iraq.isis.baghdadim ystery.html.

غدت بنيتها وقيادتها مخلخلة متناثرة في مهب الريح، فقد مثل الفساد الذي تولّد عن الثقافة السياسية المعتمدة على أموال الممولين مأزقاً خطيراً لم تستطع منظمة التحرير الفلسطينية الانفكاك منه[1].

نشوء دولة وهمية إسلامية في سورية

اكتشفت «الدولة الإسلامية» بينما تعكف على خصخصة الإرهاب أن نموذج الدولة الوهمية يعتبر وسيلة مثالية لتحقيق هدف بناء الأمة الطموح وإعادة إحياء الخلافة، فقد يكون حجم الدولة الوهمية صغيراً كضاحية في مكان ما أو كبيراً كالدولة المتعارف عليها، وهي بسيطة يسهل بناؤها وإدارتها لأنها تفتقد غالباً إلى وجود تكامل سياسي، فهي تنشأ في الجيوب/الأماكن التي تمزقها الحروب الطاحنة حيث تدمر البنية التحتية وتختفي السلطة السياسية. ويحتكر القادة عادةً السلطة السياسية ويحتاجون للسعي إلى الوصول إلى توافق ديمقراطي. أما عندما يلمّ شعث الدولة الوهمية فإن الاقتصاد يطغى على السياسة، فلديها مزيّة أخرى تكمن في انخفاض تكلفة إدارتها لأن حيزها الاقتصادي منحصر باقتصاد الحرب وخصخصة الإرهاب. أما التكاليف غير العسكرية فهي في حدّها الأدنى والسكان يحتاجون فقط إلى حدّ الكفاف ليسدوا رمق العيش.

تعتبر الحرب مصدر الدخل الوحيد في نموذج الدول الوهمية التقليدية. فقد أعلن مقاتل ينتمي إلى تحالف الشمال وينحدر من سهل الشومالي في أفغانستان أن «الحرب أسلوب حياتنا». ولهذا يتقاضى

---

(1) مرقاب الشرق الأوسط «الفساد في السلطة الفلسطينية».

http://www.middleeastmonitor.com/downloads/reports/20131214.corruptioninthepalestinianAutoirty.pdf.

المقاتلون أكثر بكثير مما يتقاضاه عامة الشعب[1]، لكن المفارقة تكمن في أن اقتصاد «الدولة الإسلامية» لا يقتصر فقط على اقتصاد حرب الفتوحات ولا يُحفزّ مقاتلوها أو شبه مرتزقتها بالرواتب العالية، بالفعل فرغم حاجة الدولة إلى ضمان ولاء المقاتلين إلا أنها تدفع لهم مبالغ أقل من تلك التي يتقاضاها أي صاحب حرفة أو عامل في أي مصنع في سورية أو العراق. تظهر الوثائق إبان احتفاظ وزارة الدفاع بسجلات أن «الجندي العادي في «الدولة الإسلامية» يتقاضى راتباً أساسياً بواقع 41 دولاراً أميركياً أقل بكثير مما يتقاضاه الحرفيون أو العمال في العراق كالبناء مثلاً حيث يصل مرتبه إلى 150 دولاراً أميركياً في الشهر. وكما توقع خبراء مكافحة الإرهاب منذ فترة طويلة أن أعضاء التنظيمات كتنظيم الدولة مدفوعون بالأيديولوجيا، ومن المرجح أن لا تلعب الحوافز الاقتصادية أي دور في إيقاف تدفق المقاتلين[2].

إذا لم يكن المال محفزاً لعناصر تنظيم «الدولة الإسلامية» فإنه يحفز بسمو قضيته من وجهة نظر أفراده أي إقامة دولة الخلافة الحديثة كدولة إسلامية مثالية تسمو فوق الجميع بما في ذلك الثروة الفردية. وينبغي أن يمثل هذا البناء السياسي آية للحداثة في الشرق الأوسط، المنطقة التي شكل فيها بناء الأمة صناعة قامت بها القوى الأجنبية على مدى قرون

---

(1) ماجي أوكين «عندما تكون الحرب طريقة للحياة».

http://www.theguardian.com/world/2001/oct/15/afganistan.terrorismg.

(2) حنا علام «تقارير تظهر كيف أن المتطرفين العراقيين قاوموا جهود الولايات المتحدة ضد الإرهاب».

http://www.meclatehyde.com/2014/06/23/231223/records.show.how.iraqi.exteremists.html.

ماضية، تلك القوى التي كانت تلهث وراء مصالحها بمساعدة النخب المحلية الفاسدة.

ورغم أن حروب البغدادي في الشرق الأوسط تذكّرنا بنزاعات ما قبل الحداثة، إلا أن مثل وقيم الخلافة تمثل خطوة باتجاه بناء دولة أصيلة تختلف عن الدول الوهمية التي أقامتها حركة طالبان في أفغانستان أو «قوات الفارك»[1] القوات المسلحة الثورية الكولومبية في كولومبيا. تلك الحركات التي جعلت شغلها الشاغل استغلال السكان المحليين ليس فقط على الصعيد المالي بل على جميع الأصعدة. ويمثل مقاتلو «الدولة الإسلامية» أيضاً خطوة إلى الأمام بالمقارنة مع جهاديي الزرقاوي أو الانتحاريين الذين كانوا متحمسين للشهادة وينعموا باثنتين وسبعين من الحور العين في الجنة. فرغم حب الشهادة لدى رجال البغدادي إلا أنهم على عكس رجال الزرقاوي، إيجابيون وعصريون. فهم يريدون العيش في ظل الخلافة على هذه الأرض وليس في الآخرة. وكما هي إسرائيل لليهود الصهاينة، يمثل بناء دولة إسلامية قوية في أرض الأجداد الخلاص في هذه الحياة الدنيا لبعض المسلمين، هذه رسالة إيجابية مؤثرة لأولئك الذين يروقهم سماع رسائل كتلك.

السعي وراء التوافق داخل الدولة الوهمية

وعلى نحو يدعو للمفارقة، فإن دعم السكان المحليين للدولة الوهمية بالنسبة للخليفة البغدادي يقع في مستوى الأهمية نفسه التي

---

(1) الفارك: تنظيم ثوري يساري مسلح، يحارب حزب المحافظين الحاكم في كولومبيا، وتسيطر الحركة على مساحات واسعة من البلاد وتستعمل أسلوب حرب العصابات. [الناشر]

يمثلها التزام مقاتليه بالقتال. وكما برهنت الثورة الإيرانية فإن الحق الإلهي لا يكفي وحده لضمان فاعلية الدولة. ولا يمكن للخلافة أن تصبح سجناً كبيراً كما كان حال أفغانستان إبان حكم طالبان. فبخلاف طالبان التي تصرفت كطبقة تسمو فوق السكان المحليين وتتغذى على استغلالهم، يرمي البغدادي إلى تأسيس دولة حديثة تحكم بتوافق المحكومين حتى لو كان تعريف المواطنة محدداً بالطائفة ولا يتضمن المساهمة الفاعلة للنساء. أما مفتاح التوافق الشعبي على الدولة الجديدة فيكمن في توفير الأخيرة برامج اجتماعية تخدم الجميع.

تحدثت دورية **الأتلانتك** عن أنشطة «الدولة الإسلامية» موضحة أنها تدير المخابز وتوفر الخضروات والفواكه للعديد من الأسر، وفي الرقة أسست الدولة مطاعم مجانية توفر الأكل للمحتاجين والمساكين ومكتباً لليتامى للمساعدة في إيجاد أسر ترغب في التكفل بهم. كما طور المقاتلون برامج صحية وبرامج إعانات باستخدام أموال الدولة. وبينما كانت طالبان تشعر بارتياب إزاء حملات التطعيم وتوفير اللقاحات تقوم «الدولة الإسلامية» بإطلاق حملات تطعيم ضد مرض شلل الأطفال لكي تحدّ من انتشاره[1]. وهكذا يمكننا اعتبار البرامج الاجتماعية وجهاً آخر من العملة التي يشكل وجهها الأول ديكتاتورية طائفية همجية [2].

ومن المهم أن نذكر أن القائمين على توفير الخدمات الاجتماعية

---

(1) في الواقع اتبع مقتدى الصدر خطة مشابهة في الضواحي الشيعية من بغداد في عام 2003 منشئاً دولته الصغيرة وبرامجه الاجتماعية وثبت أن هذه الطريقة ناجحة.

(2) آرون زيلين «الدولة الأسلامية في العراق وسورية لها مكتب لحماية المستهلك».
http://www.theatlantic.com/international/archive/2014/06/the-slamic-state-of-iraq.and-syria-has-a-consumer-pzotcction-office/374769/.

يختلفون عن المقاتلين. «إن التفريق بين المدنيين العسكريين والمقاتلين العسكريين أمر أساسي، فهما مختلفان تماماً» بحسب مايكل برزدلاكي[1]، وإذا ما اقتضت الضرورة فإن المقاتلين العسكريين يقومون باستغلال السكان المحليين بينما يحميهم المدنيون العسكريون. داخل الخلافة يفرق بين نوعين من العسكريين وهذا جيد لتعزيز الفاعلية في حدها الأقصى للدولة الوهمية.

أضف إلى ذلك أن توفير البرامج الاجتماعية يمثل زبدة استراتيجية الدولة الاقتصادية، وهذا مخطط له، فحتى قبل تدمير الحدود بين سورية والعراق وإعلان قيام الخلافة كانت الإيرادات المالية لدى الدولة وفيرة، فعلى سبيل المثال ولسنة خلت كانت المجموعة تولد أموالاً طائلة من أعمال التهريب على طول الحدود التركية السورية [2] وحتى فرض اقتطاعات على المساعدات الإنسانية التي تأتي إلى سورية، وبفضل الخطة الذكية التي مضت على قدم وساق خلال السنوات الثلاث الماضية من خصخصة الإرهاب فإن «الدولة الإسلامية» لا تحتاج اليوم إلى استغلال السكان المحليين كما تفعل مجموعات أخرى. وكما أوردت الأتلانتك بأنه عندما استولت الدولة على 425 مليون دولار أميركي من مصرف الموصل المركزي، لم تخصص تلك الأموال لتعزيز ترسانتها العسكرية فحسب بل أطلقت حملة هذه المجموعة للفوز بالعقول والقلوب[3]. تظهر

(1) مقابلة مع مايكل برزدلاكي في 16 سبتمبر/أيلول 2014.

(2) فهيم تاشتيكين «الحدود العراقية السورية باب مفتوح للمهربين».

http://www.monitor.com/pulse/originals/2014/04/turkey-syria-borders.smuggling-guns-conflict.kurds-pkk-isis-html.

(3) آرون زيلين «الدولة الإسلامية في العراق وسورية لها مكتب لحماية المستهلك». =

أحداث كهذه تكاملاً مالياً بين المجموعة المسلحة و«الدولة الإسلامية» ودولتها الوهمية «الخلافة».

إن دمج أموال «الدولة الإسلامية» مع أموال الدولة الوهمية وشراكات الأعمال مع القبائل المحلية يدل على التزام التنظيم ببناء الأمة ويظهر تطبيقها لبعض مبادئ الإدارة الرئيسية لدولة الأمة الحديثة. وأخيراً فإن إعادة تدوير الثروة داخل الدولة الوهمية لا يجعل الخلافة أقوى عسكرياً فحسب بل تعزِّز التوافق عليها لدى السكان المحليين.

توفر محافظة الرقة في سورية حيث مقر دولة الخلافة أمثلة عديدة للأشغال العامة الممولة من الأرباح المتأتية من خصخصة الإرهاب، كمشروع بناء سوق عام جديد رحب به من قبل العامة. وتقوم الدولة أيضاً بإدارة مكتب للكهرباء يراقب مستويات استخدام الكهرباء ويمدّ الخطوط وينظم ورشة عمل للتدرب على إصلاح خطوط الكهرباء القديمة. كما يصلح المقاتلون حفر الشوارع وينقلون السكان في حافلات من مكان إلى آخر ويعيدون تأهيل الطرقات لجعلها أكثر جمالاً وراحة، ولديهم مكتب بريد ومكتب زكاة ساعدت من خلاله الدولة المزارعين في حصادهم كما تزعم. والأهم من ذلك بالنسبة لسكان جنوب النهر في العراق وسورية أن الدولة استمرت في تشغيل سد تشرين (وأعادت تسميته بالفاروق) على نهر الفرات. ومن خلال جميع تلك المكاتب والإدارات استطاعت الدولة أن توفر نوعاً ما من الاستقرار في مناطق مهمشة غير مستقرة رغم أن إيديولوجيتها لا تروق للكثير من السكان المحليين[1].

= http://www.theatlantic.com/international/archive/2014/06/the-islamic-state-of-iraq-and-syria-has-a-consumer-protection-office/374769/.

(1) المصدر نفسه.

إن السعي لإحلال استقرار كهذا من خلال حكم منظمة مسلحة ليس غريباً عن المناطق التي عانت من نزاعات طال أمدها، فعلى سبيل المثال نزعت الحكومة الكولومبية عام 1998 السلاح من منطقة تقارب مساحتها مساحة سويسرا ضمت بلديات سان فيتشينتي، ديل كاغوان ولاماكارينا وفيستا هيرموسا وميسيتاز وأورايب وأصبحت جميعها تعرف بديسبييه وقدمتها لمنظمة الفارك - وهي القوات الثورية المسلحة الكولومبية الماركسية - كعربون محبة لمساهمة الأخيرة في إنهاء الحرب الأهلية والتوصل إلى سلام. وقد قامت الفارك بمشاريع اجتماعية وأشغال عامة في تلك المنطقة. فبنت طرقاً جديدة وعبّدت طرقاً قديمة وحسنت من المناطق العامة في البلدات مستخدمة عمالاً بالقسر. ووفرت للناس الأمن الذي شكل ترفاً كانوا يفتقدونه لفترة طويلة [1]. بيد أن الدول الوهمية التي بنتها المنظمات المسلحة لم تتحول إلى دول حقيقية.

كما سنرى في الفصل القادم فإن «الدولة الإسلامية» تؤمن أن هذا الهدف قابل للتحقيق من خلال إشراك السلطات المحلية والسكان في عملية البناء السياسية للخلافة.

(1) جوان فوروم «المنطقة التي يحتلها الثوار في كولومبيا تخشى انتهاء الهدنة».
http://www.nytimes.com/2000/12/16/world/rebd-held-zone-in-colombia-fears-and-of-tzuee-html.

الفصل الثالث

مفارقة روما الجديدة

في يونيو/حزيران عام 2014، وقبل يومين من شهر رمضان، أعلنت «الدولة الإسلامية في العراق والشام» في بيان موجه للمسلمين في كافة أرجاء العالم، أعلنت فيه عن قيام دولة الخلافة. قال المتحدث باسم الخلافة: «انفضوا عنكم غبار الذل والمهانة»، وبكلمات الصحفي جيريمي بووين: «ستقام الخلافة في خضم الفوضى والإرباك واليأس في الشرق الأوسط الجديد»[1].

في اليوم التالي حمّلت «الدولة الإسلامية» على الأنترنت مادة فيلمية منفّذة بإحكام وبراعة عنوانها «نهاية سايكس بيكو»[2]، يظهر في الفيديو مقاتل ملتحٍ من تشيلي يسمى أبو صفية يتحدث عن تدمير موقع حدودي بين العراق وسورية ويعلن عن إزالة الحدود بين هذين الكيانين السياسيين اللذين صنعتهما فرنسا وبريطانيا عام 1916. وقد توجهت

(1) جيريمي بووين «أزمة العراق: القتال في تكريت بعد إعلان الخلافة».

http://www.bbc.com/news/world-middleast-28092840.

(2) فرانك غاردنر «ثوار ISIS يعلنون الدولة الإسلامية في العراق وسورية».

http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-28082962.

«الدولة الإسلامية» في خطابها، على لسان المجاهد المسلم التشيلي، إلى الأمة الإسلامية جمعاء، وعكست صورة لدولة واقعية كوسموبوليتانية (متنوعة) تعيش في كنفها أعراق مختلفة تمثل العالم.

بمساعدة التكنولوجيا الجديدة ووسائل التواصل الاجتماعية حاولت «الدولة الإسلامية» أن تعكس صورة سياسية عصرية عنها، صورة إيجابية على النقيض تماماً من الديمقراطيات الغربية المتآكلة والأنظمة المعطلة في بلاد الإسلام التي استلهمت حكمها من أنظمة الغرب. يقول أحد عناصر تنظيم الدولة: «انظر إلى مصر. انظر كيف انتهى المطاف بالمسلمين الذين صوّتوا لصالح محمد مرسي (الرئيس المخلوع) مؤمنين بديمقراطيتكم وبأكاذيبكم، الديمقراطية كذبة كبيرة، فهي غير موجودة، هل تعتقد أنك حرّ؟ الغرب تحكمه المصارف ولا تحكمه البرلمانات وأنت تعرف ذلك جيداً، وتعرف أيضاً أن حياتك رهن لتلك المصارف لكنك لا تملك شجاعة الاعتراف بذلك، كل ما تفكر فيه هو الحفاظ على وظيفتك وسداد الرهن العقاري لمنزلك وليس لديك قدرة على فك تلك القيود التي تثقل كاهلك. ولكن لحسن الحظ أن مسيرة الجهاد انطلقت والإسلام سيأتي إليكم ليحرركم»[1].

تحاول الخلافة «الدولة الإسلامية» في عرضها للخلافة الجديدة تقديم صورة سياسية عصرية لها شبيهة بتلك التي عكسها الصهاينة الأوائل رغم أن كلمة الديمقراطية لا تثمنها الدولة كما كان يثمنها مؤسسو إسرائيل

---

(1) فرانشيسكا بوري «وراء العلم الأسود يتحدث مقاتلو ISIL الحاليون والسابقون».

http://www.unews.com/news/articles/2014/06/25/behind-the-black-fla g-current-former-isis-fighterssspeak.

في أربعينات القرن الماضي، فاليهود من كافة أرجاء العالم انضموا إلى الحركة الصهيونية في كفاحها ضد البريطانيين لإعادة فتح أرضهم التاريخية «الوطن الموعود» الذي وعد الله بإعطائه إياهم، على حدِّ زعمهم، لكي يسعون فيه إلى الخلاص. وكما يعتبر اليهود أرضهم الموعودة، تمثل الخلافة للمسلمين الدولة المثالية والأمة المثالية ليسعوا فيها إلى الخلاص الذي طالما انتظروه لقرون عانوا فيها من العنصرية والإهانة والهزائم على يد العلوج أي القوى الأجنبية وشركائها من المسلمين. وكما شيّد اليهود نسخة معاصرة عن إسرائيل القديمة تضم كافة اليهود في العالم تنهمك «الدولة الإسلامية» في تشييد بلد مسلم يضم كافة السُّنة في القرن الواحد والعشرين، أو على الأقل هذا ما تقوله حملتها الدعائية.

ربما تكون المقارنة عبثية ومقززة بين سلوك عناصر «الدولة الإسلامية» الهمجي وسلوك مؤسسي إسرائيل، إلا أن الكفاح لإقامة دولة الخلافة ينظر إليه من قبل مناصري وأتباع «الدولة الإسلامية» بأنه كفاح شبيه بما قام به مؤسسو دولة إسرائيل. وهذه الرسالة مؤثرة جدّاً لا سيما في الفترة الراهنة التي تشهد تخلخلاً تاماً لمفاصل السياسة في الشرق الأوسط. وبالفعل تلعب الحرب في سورية والعراق دور المحفز المؤدي إلى تضخيم الاعتقاد بنجاعة دولة الخلافة باعتبارها حلاً لجميع المشاكل السياسية في الشرق الأوسط.

وبغض النظر عن العنف الذي توظفه «الدولة الإسلامية» في إعادة بناء هذا الكيان فإن الطبيعة السامية والكوسموبوليتانية (المتنوعة الأعراق) للخلافة العصرية تجعلها مهمة للغاية في نظر السنة إذ تعود بهم إلى ذاكرتهم الجماعية للخلافة الأصلية وأمجادها. ولعقود سابقة،

ألحّ العلماء الإسلاميون والإسلامويون على فكرة مفادها أن جلالة وهيبة الخلافة تفضي إلى النعيم بالجنة على الأرض قبل السماء. «إن استعادة الخلافة كان حلم النهضويين الإسلاميين منذ خمسينات القرن الماضي عندما بدأ حزب التحرير في دعوته لإقامتها واتخذ حديث «**ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**» شعاراً له. وقد بلغ الملا عمر في أفغانستان مبلغاً قصيّاً في هذا التوجه إذ أطلق على نفسه اسم أمير المؤمنين وهو لقب تقليدي للخلفاء. وقد أتى أسامة بن لادن على ذكر إعادة إحياء دولة الخلافة مرات عديدة باعتبار ذلك غاية نهائية لمسعاه[1]. لكن لم يقترب أي من هؤلاء الرجال من تحقيق تلك الغاية حيث بقيت دولة الخلافة بالنسبة لهم حلماً لذيذاً مستحيلاً.

أصبح البغدادي الزعيم الإسلامي الأول بعد الخليفة الأول أبي بكر والخليفة الثلاثين عبد المجيد الثاني (1861ـ1823)[2]، الذي لبس جبة الخلافة ليفي بتحقيق حلم عودة العالم الضائع، مجتمع يرتبط بالعصر الذهبي لصدر الإسلام عندما انتشر الإسلام في العديد من الأمصار وازدهرت ثقافته على أيدي الخلفاء الراشدين الأربع الذين خلفوا الرسول[3].

وعلى تلك الخلفية، يستطيع المرء أن يفهم بيسر السبب وراء حلم أجيال من السُّنة في الوصول إلى هذه اللحظة التي تمحى فيها الحدود

---

(1) ويليم دالرمبل «مطالبة ISIS بالخلافة عمل من أجل السلطة لا الدين».

http://www.theguardien.com/commentisfreel/2014/jul/13/isis-caliphate-abuBakr-al-baghdadi-jihadiislam.

(2) 1909ـ1876. [الناشر]

(3) الدكتور زكريا ماتيوز «العصر الذهبي للإسلام».

http://www.irfri.org/articles/articles-401-550/golden-age-of-islam-htm.

التي تفصل بين «الدول الإسلامية» التي رسمت في الأصل على أيدي القوى الأوروبية. وقد حققت «الدولة الإسلامية» هذه الغاية ولم يحققها تنظيم القاعدة. لقد حولت «الدولة الإسلامية» الحلم العذب المستحيل إلى واقع معاش.

أداة العنف

إن سحر التاريخ والماضي المهيب والقدر المرتبط بالأرض الموعودة التي اختارها الله لشعبه المختار يغذي الشعور بالحنين الأخاذ، وقد رأينا ذلك يتجلى في عملية تشكيل دولة إسرائيل ورأيناه يتجلى في الثورة الإسلامية التي قادها الخميني عام 1978 في بلاد فارس، وعلى أجنحة العنف جمعت الثورة الإيرانية بين الماضي والحاضر وعكستها في المستقبل الذي أرادت أن يكون أكثر أبهة وعظمة [1].

إن الغوص في ماضٍ ديني سرمدي ومحاولة إدراجه في دساتير حديثة يبدو وكأنه معلمٌ يتكرر في حاضرنا، وهنا يحضر النموذجين الإسرائيلي والإيراني.

ولأن إعادة المطالبة باستعادة الماضي المشرق يتمّ تحت راية العنف من خلال الثورات والحروب الأهلية والإرهاب وحروب الفتوحات، فمن الصعب أن تتوقف الوحشية المحضة التي ترافق العملية تلك إلا إذا بلغت أقصى مدى لها. لقد انطبق ذلك على المجموعات الصهيونية المسلحة في الأربعينات من القرن العشرين كما انطبق على الحرس الجمهوري

---

(1) إنه سيكون من الخطأ أن نشمل نظام طالبان في هذه الزمرة لعدة أسباب من بينها استيراد عقيدة أجنبية ومثال سياسي في أفغانستان، البلاد التي لم تصلها الخلافة بالأصل.

الإيراني إبان ثورة آية الله الخميني. بمعنى آخر، تستخدم التنظيمات المسلحة وسيلة العنف وتوظّف الماضي كقميص عثمان بغية صناعة الحاضر، ولكنّ المراقبين يغفلون عادةً عن الهدف الحقيقي لتلك الجهود ولا يستطيعون تنبؤ ما ستؤول إليه الأمور.

ورغم أن العنف يشكل جزءاً لا يتجزأ من إعادة تشكيل أو نمذجة الماضي، إلا أنه وسيلة فقط لإدراك الغاية، فهو تكتيك مصممٌ لإثارة الذعر والرعب وزرع الخوف في نفوس الأعداء وذلك للتغلب على مشكلة عدم التماثل بين الأطراف التي تتحارب إذ يكون أحدها ممثلاً بجيش نظامي مجهز كالجيش الإيراني عام 1978 أو البريطاني في فلسطين في الأربعينات من القرن المنصرم.

وخلافاً لما ينشره الإعلام الغربي بأن الخلافة ليست سوى تنظيم يمارس العنف ويتسم بالهمجية كما هو حال من سبقه من التنظيمات العسكرية، ففي كوسوفو في تسعينات القرن الماضي اقترفت فظائع مشابهة بما يقوم به التنظيم الآن بما في ذلك قطع أعناق الأطفال ولعب كرة القدم برؤوسهم أمام آبائهم وأمهاتهم[1]. أما ما يجعل «الدولة الإسلامية» مختلفة فهو استخدامها للتكنولوجيا لنشر همجيتها للعالم بأسره والترويج لأفكارها ونهجها. ففي عشية كأس العالم لكرة القدم عام 2014، وثّقت «الدولة الإسلامية» على توتير مباراة لكرة القدم لعب أفراد التنظيم فيها الكرة برؤوس خصومهم المبتورة[2].

---

(1) مقابلة مع مترجم ألباني كان يعمل مع الجيش الأميركي في كوسوفو، 25 تموز (يوليو) 2014.

(2) لودوفيكا جاكسينو «متمردون يغردون على صور لرجل مقطوع الرأس: هذه كرتنا. إنها =

توفر التكنولوجيا اليوم للتنظيمات المسلحة الحديثة فرصة بلوغ الحرب الدعائية مستويات رفيعة. فالصرب، على سبيل المثال، لم يتمكنوا من نشر أدلة على الفظائع التي ارتكبوها، أما الفيديو الذي أظهر قطع رأس الصحفي الأميركي جيمس فولي فقد انتشر كالنار في الهشيم خلال بضع ساعات فقط. وبالتالي وصلت رسالة التنظيم لبث الخوف في النفوس إلى العالم بأسره بينما رسالة الصرب لم تتعدَ نطاقها المحلي. فغياب وسائل التواصل الاجتماعي وتفضيل المعلنين والصحفيين وأهل البث التلفزيوني لنقل تفاصيل الحروب بصورة معقَّمة خالية من الدم أنقذنا من الجرائم الفظيعة والأفعال البشعة التي اقترفت في كوسوفو. أما اليوم، فإن فظائع تنظيم الدولة تصلنا ساعة ارتكابها عبر وسائل التواصل الاجتماعي ويعاد بثها على الدّوام في القنوات الإعلامية السائدة وصفحات الفيسبوك واليوتيوب وغيرها. وحتى عندما تفرض الرقابة على بعض المحتويات على الأنترنت، كما حصل مع فيديو فولي، إلا أن وسائل قنوات التواصل الاجتماعي تتجاوز تلك الرقابة بسهولة.

التكنولوجيا، بطبيعة الحال، لا تغيّر ولا تضخم طبيعة رسالة العنف التي تبثها التنظيمات المسلحة، فالرسالة من وراء الحرب الدعائية تبقى مرتبطة بنشر الخوف وترويع العدو وجذب المناصرين. ففي مقابلة مع أحد الأشخاص من الطائفة السّنية، قال في ردّه عن سؤالي: «كيف كان شعورك عندما رأيت الشباب يلعبون الكرة برؤوس الجنود العراقيين الشيعة والشرطة؟ شعرت أن العدالة أخذت مجراها أخيراً». وأردف

= مصنوعة من جلد وكأس العالم».

http://www.ibtimes.co.uk/isis.insurgents-tweet-picture.beheaded-man-this-our-ball-its.made-skinworldcup.1452643.

معلقاً على طرده من منزله في بغداد: «أتت الميليشيا لتطردنا من منزلنا بينما كان رجال الشرطة يقفون خارج المنزل يضحكون. تركنا كلّ شيء خلفنا، الأثاث والملابس ولعب الأطفال. سمح لنا فقط أن نأخذ معنا ما نستطيع حمله بأيدينا فقط»[1].

شهد هذا الرجل اعتماد التنظيم وحشية نكراء ضدّ الشيعة واعتبر ذلك انتقاماً شخصياً له من كلّ الشيعة. وبغض النظر عن موقع حدوث الفظائع سواء على الشاشة أو في شوارع الفلوجة، كحادثة سحل الجنود الأميركيين من طرف موظفي بلاك واترز، فإن التأثير هو ذاته.

لا يعتمد تنظيم الدولة على وسائل التواصل الاجتماعي فحسب لينشر رسالة الترويع ويعبر عن مدى قدرته التوسعية، فالأرقام أيضاً تساعد في توصيل الرسالة. فوفقاً للأنباء الواردة في التقرير السنوي لعمليات التنظيم (أخبار النبا)، فإنه قام في عام 2013 بما يقارب 10000 عملية في العراق: ألف عملية اغتيال وأربع آلاف عبوة ناسفة وتحرير مئات «الراديكاليين» المتطرفين من السجون[2]. وبالنظر إلى أن عدد القتلى الذين سقطوا في العراق خلال عام 2013 وصل إلى 7800 شخص فإن عدد العمليات التي قام بها التنظيم مذهل بالفعل[3]. وتزعم «الدولة الإسلامية» في التقرير نفسه أن مئات من المرتدين عادوا إلى الإسلام

---

(1) مقابلة، لوريتا نابوليوني.

(2) رولا خلف، سام جونز «الدعاية للإرهاب: كيف تزين ISIS وحشيتها».

http://www.ft.com/cms/s/2/69e70954.f639-lle3.aor800144feabldco.html.

(3) أخبار الـBBC «ضريبة الموت السنوية في العراق هي الأعلى في خمس سنوات».

http://www.bbc.com/news/world-middle-east.25568687.

عام 2014. وهذا ما يؤكد قوة الخطاب الدعوي للتنظيم من خلال العنف على أيدي جيش منتصر. فكما هو حاصل، ففي الحروب الطائفية الدموية عادة، فإن الخصم المهزوم الذي تنزع منه صبغة الإنسانية قد ينضم إلى المنتصر لحماية نفسه.

إن تزايد أعداد مناصري التنظيم حول العالم، أولئك الذين غرّتهم وجذبتهم الحرب الدعائية ليلتحقوا بقاطرة توليد العنف، يؤكد على الجاذبية العالمية لرسالة التنظيم التي تقول إن العالم الافتراضي الذي نعيش فيه اليوم يمكن أيضاً أن ينتج أفعال عنف همجية لاعقلانية. فالمحاولة الفاشلة لمجموعة من الاستراليين المسلمين لقطع رأس أحد الأشخاص، خطفوه على نحو عشوائي، بغية عرض تلك العملية على الأنترنت يظهر لنا مدى انتشار حرب التنظيم الدعائية وخطابها في البيئة الافتراضية التي يُعتبر محتواها لعبة فيديو مسلية بما في ذلك لعبة الحرب الفعلية. هذه الطفرة في تأثيرات الحرب الدعائية الكلاسيكية بواسطة أعمال عنف فظيعة ومنحرفة ترتكبها مجموعات مسلحة يشكل نوعاً جديداً تماماً من التهديد المحدق بالبلدان الغربية. ومثلما انتشرت ظاهرة الانتحاريين في العقد الأول من الألفية الثالثة، يصعب تعقب ومراقبة من يرغب اليوم بتقطيع الرؤوس لأنهم لا ينتمون بالضرورة إلى مجموعات معروفة راسخة. بل إن تشددهم وراديكاليتهم تشكلت في غرفهم الخاصة بعد أن نقروا على بعض الروابط المغرية على الأنترنت.

بينما تعتبر «الدولة الإسلامية» كياناً مرعباً للجمهور العالمي، بخلاف حركة طالبان وتنظيم القاعدة، إلا أنها تعتبر كياناً حامياً للسكان المحليين الذين ينافحون عن التنظيم ولا يعتبرون أي شكل من أشكال الانتقام

أو العقاب الذي يقترفه التنظيم ضرباً من ضروب الوحشية. فالبيروقراطية المتطورة المذهلة التي يعتمدها التنظيم تنضوي على منظومة محاكم إسلامية وقوات شرطة تقوم بتطبيق الأحكام علناً في الشوارع أو الميادين العامة. «في بلدة منبج السورية، على سبيل المثال، يقطع عناصر «الدولة الإسلامية» المسؤولون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يد السارق ويجلدون من يسيء إلى جاره ويصادرون ويتلفون الأدوية المغشوشة وفي عدة مناسبات يعدمون ويصلبون أفراداً بتهم القتل أو الردّة»[1].

لا تمثل تلك الأفعال من وجهة نظر الغربيين الدولة الحديثة التي تسعى للحصول على الشرعية من خلال الإجماع بل تمثل قوة عسكرية محتلة تتسم بالوحشية والسادية. لكن وجهة النظر تلك لا تنطبق بالضرورة على سنة العراق وسورية لا سيما إذا ما نظرنا إلى معاناتهم جرّاء الفوضى والتدمير والفساد على أيدي الموظفين الحكوميين ورجال الشرطة والسياسيين في بلادهم. يشرح المسألة فرد من أفراد التنظيم فيقول: «أنتم تركزون فقط على الإعدامات، لكن جميع الحروب يتخللها إعدامات للخونة والجواسيس، لقد فتحنا مؤسسات لإطعام الجائعين وأعدنا بناء المدارس والمستشفيات وأعدنا المياه والكهرباء وغطينا تكاليف الوقود والغذاء، بينما لم تستطع الأمم المتحدة أن توصل المساعدات الإنسانية، لقد قمنا بتوفير لقاحات شلل الأطفال، تناسيتم جميع تلك الخدمات وركزتم على الإعدامات، ينتشر الخبر الساخن أكثر من الخبر الباهت

---

(1) آرون زيلين «الدولة الإسلامية في العراق وسورية لها مكتب حماية للمستهلك».
http://www.theatlanic.com/international/archive/2014/06/the-islamic-state-of-iraq-and-syria-has-a-consuner-protection-office/372769/.

بطبيعة الحال، وإذا كنا قد عاقبنا سارقاً فرداً فأنتم في المقابل تعاقبون مئة طفل بسبب بلادتكم وعدم اكتراثكم[1].

يجب على المرء أن يخطو خطوة إلى الوراء ليفكر في مفهوم بناء الأمة ضمن سياق المجتمعات القبلية ما قبل الحداثة إذا أراد أن يفهم جاذبية طرح التنظيم في صفوف السنة من جهة وتحدي دولة الخلافة الحقيقي للعالم من جهة أخرى.

روما.. طروادة اليوم

تمزج «الدولة الإسلامية» بين دكتاتورية ما قبل الحداثة من جهة والهمجية من جهة أخرى وتحاول أن تنهض بالدولة بالاعتماد على رسالة الوطن والعائلة. فهي تشجع جنودها على الزواج وخلال العروض العسكرية التي تقيمها احتفالاً بنصر ما يخرج الجنود مدججين بالسلاح في طوابير ويحملون الأطفال على أكتافهم. في عاصمة دولة الخلافة، الرقة، تجول حافلة في شوارع المدينة مطلقة حملة من الدعاية لتجنيد الشباب المحلي في معسكرات تدريب حيث يتعلمون استخدام الأسلحة الحديثة. وفي الأمسيات الصيفية الدافئة، يدعى السكان لحضور احتفالات إسلامية صيفية في الميادين العامة. إذ تنطلق الموسيقى والأناشيد والهتافات والضحكات والمدائح تقديراً للخلافة والخليفة. يتدفق الأطفال إلى تلك الاحتفالات وتجتذبهم الموسيقى ومشاهد التسلح

(1) فرانشيسكا بوري «وراء العلم الأسود يتحدث مقاتلISIL الحاليون والسابقون».

http://www.usnews.com/news/articles/2014/06/25/behind-the--black.fl ag-current-former-isil-fighters-speak.

المبهرة وجموع المقاتلين الذين يشجعونهم للانضمام إليهم للدفاع عن دولتهم الجديدة[1].

ورغم أن العالم الذي تصوره الخلافة على وسائل التواصل الاجتماعي يظهر دائماً على خلفية حرب الفتوحات التي تعود بنا إلى القرون الوسطى- بحيث تُشاهد الرؤوس المقطعة والأجساد المصلوبة في الحدائق والميادين العامة وتغيب النساء عن المشهد تماماً - إلا أنه يوجد جانب آخر من الخلافة، بالفعل، فإن وجه الخلافة الاجتماعي يظهر لمسات إنسانية، هذا الجانب الذي يجب أن يتجاوب معه الغرب إذا رغب في إبطاء عملية التجنيد.

فعلى عكس حركة طالبان، تسعى «الدولة الإسلامية» للحصول على الشرعية في أوساط المدنيين من خلال إغراء الرجال والنساء والأطفال بالحصول على حق المواطنة في ظل دولة الخلافة. وعلى عكس الحركات التي شعرت بشرعيتها في أوساط قطاع بسيط من السكان كمنظمة التحرير الفلسطينية أو حركة إيتا الإسبانية أو الجيش الجمهوري الإيرلندي، تسعى «الدولة الإسلامية» لإضفاء الشرعية عليها من خلال موافقة الأمة الإسلامية على نهجها، أمة المؤمنين التي تمثل روح الإسلام. وعليه، فإن طموحاتها تتعدى طموحات جميع التنظيمات المسلحة التي سبقتها. وإذ برهنت «الدولة الإسلامية» من خلال نجاحاتها العسكرية المذهلة بأن الله في صفّها وأن خليفة الرسول قد أصبح الخليفة، وجب على مقاتليها الآن

---

(1) ديبورا أموس «حكم الدولة الإسلامية: خدمات بلدية وقطع رؤوس عام».
http://www.npr.org/blogs/parallels/2014/09/12/347748371/islamic-state-rule-municipatservices-and-public-beheadings.

أن يفوزوا بثقة العامة وينكحوا ما طاب لهم من النساء المؤمنات القانتات لكي ينتجوا جيلاً جديداً ترتكز دولة الخلافة على قوته في المستقبل.

ولكي نعقد مقارنة مع مشروع «الدولة الإسلامية» في بناء الأمة عن طريق العنف المطلق والاعتماد على تدخل العناية الإلهية في إضفاء الشرعية على المشروع واستقاء الدافع من الحنين إلى العصر الذهبي الغابر، يتعين على المرء أن يعود إلى حقبة ما قبل الحداثة، أي إلى فترة المجتمعات القبلية وولادة روما القديمة.

تتحدث الميثولوجيا (الأساطير) الرومانية عن رابط الدم المباشر الذي يجمع بين مؤسسي روما مع الناجين من حصار طروادة الشهير. إذ يقدم كل من روميولوس وريميوس على أنهما من سلالة الأمير أينياس وابنه أسكانيوس الذي نجا من دمار طروادة بأعجوبة. وهكذا، تتدخل العناية الإلهية لحفظ تلك السلالة ليظهر بعدها رجال أعادوا إحياء طروادة لتستمر عظمتها من خلال روما ليثبتوا أن طروادة لم تكن لتموت على يد الرجال بل هي حية برعاية الرب. إلا أن طروادة الجديدة لم تكن مجرد نسخة عن طروادة القديمة. بل كانت خلقاً جديداً حديثاً. وبالمثل، ووفقاً لخطبة الخليفة، فإن الخلافة الإسلامية الجديدة لن تكون مجرد نسخة عن الخلافة القديمة، بل ستتمتع بهوية خاصة بالتساوق مع أيامنا المعاصرة.

وعلى خلفية الميثولوجيا (الأساطير) الرومانية التي وفرت الشرعية لتأسيس المدينة الجديدة، تعين على روما أن تحل المشاكل الواقعية المرتبطة ببناء الأمة، أي جعل تلك الأرض آهلة بالسكان ومن ثم تحويلها من معسكر عسكري يحتوي على رجال يمارسون العنف إلى مدينة بكل

ما تحمل الكلمة من معاني المدنية. وقد تطلب ذلك التحول تشكيل الأسر. وهكذا سعى الرومان إلى التزاوج باحثين عن المرأة الودود الولود لعمارة المدينة وجعلها ريّانة بالأطفال، جيل المستقبل. وبما أنهم كانوا على درجة متقدمة من العنف، فقد سبوا النساء من جيرانهم السّابينيين **(Sabini)**[1].

وكما احتاجت روما إلى نساء كشرط لاستمرار نموها وتوسعها تحتاج دولة الخلافة اليوم إلى النساء لتنمو اجتماعيّاً. وقد أفاد تقرير من بلدة بيجي العراقية التي يسيطر عليها التنظيم بأن المقاتلين كانوا يطرقون أبواب المنازل الواحد تلو الآخر ويسألون عن أعداد المتزوجات والعازبات في كل منزل وقد أرهبوا بذلك السكان. يقول أبو لحد أحد السكان: «قلت لهم إن امرأتين تعيشان في هذا المنزل وكلتاهما متزوجتان. قالوا إن الكثير من المجاهدين غير متزوج ويرغبون في الزواج، وأصرّوا على الدخول إلى المنزل ليتفحصوا البطاقات الشخصية للنساء (التي تظهر الحالة الزوجية لحاملها في العراق)»[2].

وعلى نحو لافت، وضعت الحرب التي سعى الرومان من خلالها إلى اغتصاب النساء المسبيات أوزارها بسبب الضحايا أنفسهن. فقد عمدت السبايا إلى إقناع أقاربهن من الرجال لعقد صلح مع الأعداء الذين أصبحوا أزواجهن بعد السبي. وعلى نحو مشابه، قدمت النساء في الرقة أنفسهن كدروع بشرية قبل أن تسقط الرقة في يد تنظيم الدولة

---

(1) الشعب السابيني: أحد الشعوب المجاورة لمدينة روما. [الناشر]

(2) أخبار الـBBC «معركة للعراق وسورية في خرائط».

http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-27838/634.

الإسلامية وذلك لحماية المدينة من هجمات الثوار[1]. تعتبر الرقة بلدة هامشية تتألف من قبائل كانت تدعم نظام الأسد في البداية ثم ما لبثت أن تحولت لدعم تنظيم الدولة. وهذا مثال مميز يعكس خطة الخلافة في إدارة الدولة الجديدة من خلال مدّ الجسور مع المجتمعات المحلية. فهي تسعى على سبيل المثال إلى إزالة المعارضة الداخلية من خلال الزواج والمصاهرة بين الفاتح ومن يخضع تحت سيطرته، بين مقاتلي الدولة والنساء السنيات المحليات اللواتي مع مرور الوقت سوف يعززن من الإجماع المحلي ويوفرن شرعية وجود الدولة واستمرارها.

التحدي الأصعب للخلافة

تستمد «الدولة الإسلامية» الحداثة والبراغماتية من مزيج من تكتيكات عصرية ومهارات تواصلية وتكنولوجية وحرب دعائية سيكولوجية (نفسية) وحرب ذات أسلوب قديم وأعراف قبلية، كالزواج المدبّر بين نساء القبائل السنية والجهاديين. وعلى هذه الخلفية، يبدو جلياً أن «الدولة الإسلامية» قد قزّمتْ جميع الدول الوهمية السابقة والعصرية في سعيها لبناء الأمة، وقد تنجح هي في حين فشلت جميع التنظيمات المسلحة الأخرى. وسيكمن نجاحها في قدرتها على استحداث طراز جديد من الدولة القوية الكبيرة المهمة استراتيجياً تسترعي اهتمام العالم بأسره، وذلك عن طريق العنف المحض. بالفعل، فهي قد حشدت لغاية الآن أمماً تفوق في مجموعها مجموع الكبار العشرين. أما البديل عن الاعتراف بـ«الدولة الإسلامية» والخلافة فهو حرب شعواء مع الجنود الأجانب على الأرض.

(1) مقابلة مع فرانشيسكا بوري في 15 سبتمبر/أيلول 2014. انظر أيضاً فرانشيسكا بوري:

La Guerra Dentro (Torino: Einaudi, 2014).

وهذا سيلحق الضرر بأعداد أكثر من المدنيين وسيزعزع استقرار المنطقة نهائياً بينما النجاح طويل الأمد قد يبدو باهتاً. لكننا لا يمكن أن نستبعد انطلاق حرب برية شعواء، لا سيما بعد الإعلان عن الخطة الأميركية في شن الضربات الجوية وتشكيل تحالف كبير لمقارعة التنظيم.

هل يتخيل أن القادة الأوروبيين سوف يصافحون البغدادي في يوم من الأيام؟ قد تبدو هذه فكرة مقززة اليوم، لكن قصة اغتصاب نساء قبيلة السّابين يجب أن تذكرنا باستحالة المحال، واحتمالية حدوث أمر كهذا شريطة توفر توافق كاف.

إن فكرة التفاوض مع «الدولة الإسلامية» على الأقل أثناء كتابة هذا الكتاب، غير واردة البتة، لكن إذا قُسّم العراق وأسست «الدولة الإسلامية» دولتها الخاصة في المناطق السنية في العراق وسورية وإذا ما زحفت إلى الأردن ولبنان أو أية منطقة استراتيجية أخرى فإن الأمور ستغدو مختلفة تماماً. هل سيسمح الغرب والعالم بوجود دولة مارقة على أعتاب أوروبا وعلى مقربة من إسرائيل؟ وهل ستكتسب هذه الدولة الزائفة، التي بُنيت من خلال العنف الهمجي، الشرعية الضرورية من خلال توافق داخلي شعبي ينقلها إلى مصاف الدول العصرية؟ إذا ما حصل ذلك، هل من الحكمة اجتذاب دولة كتلك إلى الأسرة الدولية والاعتراف بها كعضو أممي لكي ترغم على احترام القانون الدولي قبل أن تغير ملامح الشرق الأوسط برمته وتعيد رسم خريطته وفقاً لمصلحتها؟ إن الخشية التي تنتاب دول الخليج إزاء تقدم دولة الخلافة واقترابها من حدودها يشير إلى احتمال وجود قوى ثورية لـ«الدولة الإسلامية» داخل تلك الدول.

لن تكون تلك المرة الأولى التي تنتقل فيها دولة ما من طور الدولة

المارقة إلى طور الدولة العصرية، ومصداق ذلك اعتراف العالم بالقذافي مثلاً، لكن الجديد في هذا الخضم هو ولادة دولة من رحم الإرهاب المحض ومن خلال حرب فتوحات ما قبل الحداثة. هذه لعمري سابقة لا مثيل لها في التاريخ الحديث.

هذه هي التحديات الجسام التي نواجهها اليوم، وبغض النظر عن كيفية التعامل معها، فإن «الدولة الإسلامية» تذكرنا بأن خطأ السياسيين في تعريف هذه الظاهرة الجديدة والاكتفاء بوصفها نوعاً آخر من الإرهاب قد يفضي إلى نتائج لا تحمد عقباها. «فالدولة الإسلامية» قد تكسر القالب وتحل معضلة الإرهاب من خلال نجاحها في بناء الأمة وبهذا يمنح أعضاء منظمة مسلحة حيثية العدو ويمنح السكان المدنيين في كنف الدولة حيثية المواطنين. حتى مع غياب اعتراف دبلوماسي، فإن وجود الخلافة وحده كفيل بتغيير الطريقة التي ينظر فيها المجتمع الدولي للإرهاب.

ما هي نسبة احتمال حصول سيناريو كهذا؟ هل قدر الدولة سيشبه قدر التنظيمات المسلحة الأخرى الحديثة؟ لقد اتسمت «الدولة الإسلامية» باكتساب بعض مظاهر الدولة الحديثة كالشرعية المحلية التي اكتسبتها من وجود نوع ما من العقد الاجتماعي واكتسابها الخبرة في تطبيق سياسة التلاعب لصالح قيادتها. وعلى نحو يدعو للمفارقة والسخرية، ولكي تبرر «الدولة الإسلامية» مزاعمها لترسيخ الدولة، قامت باختراع ميثولوجيا (أسطورة) خاصة بها بزغت من تحت رماد الأسطورة التي صنعتها الإدارة الأميركية لنزع الصبغة الشرعية عن صدام حسين ـ أعني بالطبع ـ أسطورة الزرقاوي.



الفصل الرّابع

طائر الفينيق الإسلامي

في عام 2009 أطلق سراح أبو بكر البغدادي من معسكر بوكا، وهو معسكر اعتقال في العراق سمي كذلك تيمناً برجل إطفاء كان يعمل ضابطاً في وحدة إطفائية مدينة نيويورك يدعى رونالد بوكا، كان قد قضى في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بينما كان يؤدي مهمته، يوم الهجمات. ورغم أن الأسباب التي دفعت إلى إصدار عفو عن البغدادي وآلاف من السجناء الآخرين في تلك الفترة كانت أسباباً مبهمة، إلا أنه من المرجح أن تكون مرتبطة بافتقار الحكومة العراقية إلى الموارد المالية الكافية لتغطية نفقات ذلك المعسكر. وهكذا أفرغ المعسكر من السجناء بينما كانت تستعد القوات الأميركية للانسحاب عام 2010.

وبينما كان البغدادي يغادر المعسكر مصحوباً بجنود احتياط كانوا قد جُندوا بواسطة مركز في نيويورك يسمى لونغ أيلاند، علّق ساخراً وقال: «أراكم في نيويورك»[1]، لم يلق الكثير منهم بالاً لما قاله البغدادي حينها، وعندما أصبح خليفة «الدولة الإسلامية» في ربيع 2014 استذكر العقيد

(1) مايكل دالي «قائد ISIS: نراك في نيويورك».

http://www.thedailybeast.com/articles/2014/06/14/isis/-leader-see-yo
= u-in-new-york-html.

كينيث كينغ ـ الضابط المسؤول عن المعسكر ـ عبارة البغدادي التي تشكل الآن تحذيراً مرعباً[1].

ومع مبايعة البغدادي خليفة للمسلمين أعرب كينغ عن دهشته البالغة إزاء ذلك، ولم يستطع أن يستوعب أن سجينه السابق أصبح على رأس قائمة الإرهابيين المطلوبين دولياً. ففي السجن لم يكن البغدادي يصنف ضمن خانة المتشددين السُّنة الذين يبرزون العداء لأميركا باستمرار، ولم يكن الإعلام مهتماً بشأنه وشأن مجموعته حتى قبل أسابيع قليلة من إعلان الخلافة، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تجاهلت فيها الولايات المتحدة عدواً لدوداً بسبب جهلها المحض وتخطيطها الرديء. وما أثار الدهشة أيضاً أن العالم بأسره غفل عن نجاحات البغدادي المذهلة التي حققها في سورية عامي 2012 و2013 بينما كانت أنظار العالم منصبة على سورية بالذات.

ومما يثير القلق أيضاً أن نجاحات الخليفة المذهلة كانت قد أنجزت من خلال نسجه على منوال سلفه الزرقاوي الذي لمّعت إدارة بوش صورته ورسمت ملامح أسطورته كإرهابي خارق للعادة. والأكثر دهشة من ذلك كله أن البغدادي استعار من الأميركيين أدوات وفنيات الحرب الدعائية ذاتها التي وظّفوها لبناء أسطورة الزعيم الجهادي الأردني وحيثيته الزائفة المرعبة واسمه الذي ملأ الآفاق. ويا لها من مفارقة، فكما أراد بلير وبوش أن يغيّرا ملامح الشرق الأوسط أراد البغدادي أن يفعل ذلك وأكثر،

---

(1) فوكس نيوز «ابن لادن التالي: قائد ISIS أبو بكر البغدادي».

http://www.foxnewsinsider.com/2014/06/13/next-bin-laden-abu-bakr-al-baghdadi.

إذ وضع لنفسه هدفاً سامياً طموحاً: **إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط من خلال تأسيس دولة جديدة هي دولة الخلافة.**

صناعة الإرهابي الخارق

بخلاف ما يعتقد كثير من الناس، فإن بزوغ نجم الزرقاوي في السماء الجهادية ودوره كعدو لدود للولايات المتحدة هو مصداق كلاسيكي للنبوءة الكاذبة التي يتبناها المرء فتصبح واقعاً. فعندما أتى كولين باول على ذكر الزرقاوي ووصفه بأنه رجل القاعدة في العراق، أصبح الأخير النجم الجهادي الجديد بين ليلة وضحاها، وبدأ الرّعاة يغدقون عليه الأموال ويدعمون مجموعته. وكما سعت أميركا إلى ربط تنظيم القاعدة بصدّام حسين بينما الرّابط كان منعدماً، سعت أيضاً إلى تضخيم هالة الزرقاوي بينما الحقيقة تفيد بما لا لبس فيه ولا التواء بأنه كان سمكة صغيرة الحجم ضمن أسماك كبيرة مفترسة تسبح في لجّة الجهاد. يمكننا القول إن اختراع زرقاويشتاين على نسق فرانكشتاين عاد ليقضّ مضجع مخترعه بحيث انقلب السحر على الساحر وتجلى في نجاحات تنظيم الدولة الإسلامية اليوم.

سمعت السلطات الأميركية باسم الزرقاوي لأول مرة عن طريق جهاز الاستخبارات الكردي في أواخر عام 2001 بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. وزعم الأكراد حينها أن القاعدة كانت تمول معسكراً جديداً في باجارا «Bajara» في إقليم كردستان العراق تديره مجموعة جهادية جديدة تطلق على نفسها اسم «أنصار الإسلام». وفي العام نفسه، انضمت مجموعة من الجهاديين الأردنيين من مدينة الصلت (السلط) تطلق على نفسها اسم «جند الإسلام» كانت قد التقت الزرقاوي في السجن وبقيت على

تواصل معه، وانضمت إلى أنصار الإسلام[1]. وقد اعتمدت الاستخبارات الكردية على رواية اندماج المجموعتين لتربط الزرقاوي بالقاعدة من دون وجود دليل دامغ على تورطه. وقد سمّي الزرقاوي بالذات لأنه شكل حلقة الوصل بين المجموعتين بسبب علاقاته الشخصية مع الأردنيين ومعسكره الأفغاني في هيرات، المدينة التي شكلت محطة ضمن سلسلة محطات كان يتحرك فيها الجهاديون ابتداءً من شمال العراق.

لم يكن الأميركيون قد سمعوا البتة بهذا الاسم من قبل، وقد سارعوا إلى إجراء اتصالات مع السلطات الأردنية ليعرفوا المزيد عنه، وفي تلك الفترة كانت واشنطن تبحث عن أسطورة تسوق لها باعتبارها مبرراً للتدخل في العراق. وقد أفضى تحقيق أميركي أردني مشترك إلى اتهام الزرقاوي بأنه كان العقل المدبر لمحاولة تفجير فاشلة قامت بها القاعدة أثناء احتفالات الألفية في الأردن، واتهموه أيضاً باغتيال مواطن إسرائيلي يدعى يتسحاق سنير عام 2001 ومواطن أميركي يدعى لورنس فويلي عام 2002 رغم أن مجموعة مسلحة مجهولة تطلق على نفسها اسم «شرفاء الأردن» كانت قد تبنت اغتيال الرّجلين. ومرّة أخرى غاب الدليل الدامغ على تلك الاتهامات، وبالفعل فبعد أن أصدر الحكم بالإعدام غيابيّاً بحق الزرقاوي في أواخر إبريل/نيسان عام 2004، أصدر «شرفاء الأردن» بياناً برّؤوا فيه ساحته. وقد أرفقوا البيان بخراطيش الرصاصات التي استخدمتها المجموعة في اغتيال فولي وسنير[2].

لقد حقق الأميركيون الكثير جرّاء خلق أسطورة الزرقاوي. فقد عكفت

(1) جوان سانشيز «الإرهاب وتأثيراته» (Global Media, 2007).

(2) www.assabeel.net. (n1 539 2 May 2004).

الولايات المتحدة الأميركية، من 2001/09/11 ولغاية 2003/03/20، على تشذيب محاجتها لغزو العراق، فقد اتهم نظام صدّام بامتلاك أسلحة الدمار الشامل ودعمه للإرهاب. وفي ظل غياب الدليل على الاتهام الأول ركّزت الولايات المتحدة على الاتهام الثاني لكي تقنع العالم بضرورة الإطاحة بالطاغية العراقي صدّام حسين. شكّل ذلك الورقة الأهم في لعبة السياسة، ولكي تلعب الإدارة الأميركية تلك الورقة أرادت أن تربط بين صدام وتنظيم القاعدة، وقد فصّل ذلك الرّابط على مقاس الزرقاوي، فتورّط الرّجلان من حيث لا يدريا.

سحر الإعلام الاجتماعي

إن نجاح صناعة أسطورة الزرقاوي يرتكز على عاملين: قوة تأثير الإعلام الذي نشر في كافة أنحاء العالم رسالة مروّعة عرضها كولين باول في خطابه في مجلس الأمن، ورغبة المواطنين الغربيين في تصديق تلك الرسالة المشكوك في صحتها، لا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. ومع مرور عشر سنوات فقط، توظّف «الدولة الإسلامية» حالياً وسائل التواصل الاجتماعي لنشر رسائل جديدة مروّعة ومجموعة من الأساطير الزائفة على نسق ما فعلته الإدارة الأميركية من قبل. ويبدو وكأن العالم كما كان عليه الحال منذ عشر سنوات يميل إلى تصديق تلك الأساطير.

يفهم البغدادي وأتباعه أهمية الحياة الافتراضية ونزعة البشر التي تدفعهم إلى التصرف على نحو غير عقلاني لدى تعاملهم مع قضايا مرعبة وغامضة كقضية الإرهاب. وإذ يظهر رجال الدولة فهماً عميقاً للتحليل المعقد لوسائل التواصل، فقد استثمروا طاقة استثنائية في وسائل التواصل

الاجتماعي لينشروا تنبؤاتهم الزائفة المرعبة مع معرفتهم أنها ستنقلب إلى حقائق في أذهان المتلقي. ويبدو أنهم على دراية تامة أيضاً بأن قيمة الخبر تكمن في مدى إثارته للصدمة في المقام الأول. أما كونه حقيقياً أو زائفاً فيندرج في المقام الثاني، لا سيما ونحن نعيش في زمن تتداول فيه الأخبار الساخنة على مدار الساعة مدفوعة بصحفيين وقراء مدمنين على أخبار استثنائية ساخنة صادمة لا ضير في أن تكون زائفة.

وكما رأينا فإن هدف التنظيم ومنذ البدايات عندما عبرت أول مجموعة جهادية من «الدولة الإسلامية في العراق» الحدود السورية، كان منصباً على الاستيلاء على أراضٍ يخضعها لسيطرته لإقامة دولة الخلافة عليها لاحقاً. كان ذلك هدفاً طموحاً لم يكن التنظيم ليفي به دون الاعتماد على نشر ميثولوجيا (أسطورة) مصاغة بإحكام وذكاء تظهر قوة البغدادي وأتباعه بشكل يفوق قوتهم الفعلية. وهكذا بدأت آلة الدولة الفنية بإعلان حرب دعائية تجلّت في نشر أخبار زائفة تظهر مدى قوة التنظيم الاستثنائية. تشكلت تلك الآلة من سواعد ماهرة وأدمغة قادرة على امتصاص تفاصيل التكنولوجيا الحديثة تمرر رسائلها ببراعة عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي، وقد برهن ذلك التكتيك نجاعته لا سيما في برامج التجنيد وجمع التبرعات والتدريب العسكري. وبالفعل استطاع التنظيم في الفترة الاستهلالية من عام 2011 أن يجتذب مقاتلين ذوي خبرة من البوسنة والشيشان انضموا إلى التنظيم وتجاهلوا جميع التنظيمات المتصارعة الأخرى على أرض سورية [1]، وقد أظهر

---

(1) سوهراب أحمري «داخل عقل الجهادي الغربي».

http://www.online.wsj.com/articles/sohrab-ahmari-inside-the-mind-of-thewestern-jhadist-1409352541.

أولئك معرفة عسكرية مذهلة. إن التضليل الذكي الذي نتج عن الحرب الدعائية خدع الجميع **وأخفى حقيقة مكشوفة مفادها أن «الدولة الإسلامية في العراق» كانت في أواخر عام 2010 على شفا الانقراض**، لكن هجرة جنودها إلى سورية كان بمثابة القشة التي تعلقت بها تلك الدولة وأنجتها من الغرق والاضمحلال.

تستمر الحرب الدعائية بدون انقطاع داخل وخارج أراضي دولة الخلافة وتنتشر الأساطير حول رجال أشداء وجيوش جرّارة، ففي الرقة يقود جهادي بلجيكي حافلة صغيرة مع ابنه ويجيب على جميع أسئلة السكان سواء المتعلقة بالخدمات الاجتماعية أو تلك المتعلقة بالحصول على عمل... إلخ. وقد اكتظت الحافلة بالمنشورات والأقراص الممغنطة والأناشيد والصور والكتب[1]. لقد بتنا نشاهد ظاهرة قديمة قدم التاريخ شرحها أفلاطون ببراعة استثنائية في أسطورة الكهف، فأولئك المسجونون فيه يرون من العالم ظلالهم التي تنعكس على الجدران فقط، ويؤمنون بالتالي أن هذه هي حقيقة العالم المطلقة ولا شيء سواها.

وبخلاف حركة طالبان التي لم تكترث بالتكنولوجيا سعت «الدولة الإسلامية» إلى شن حرب دعائية بواسطة تكنولوجية رفيعة المستوى يقودها محترفون من بينهم أشخاص ذو كفاءات تعليمية مميزة قادمون من الغرب. فمثلاً عندما عمدت إدارتي موقعي فيسبوك وتويتر إلى تنحية الفيلم الذي أظهر إعدام جيمس فولي من الأنترنت، سارع فريق الحرب الدعائية في الدولة وخلال ساعات معدودة إلى إتاحة الوصول مرّة أخرى إلى

---

(1) أخبار« VICE الدولة الإسلامية».

http://www.youtube.com/watchv-Allj#b4e7b94.

الفيلم ذاته عن طريق استخدام مواقع أخرى تسمى «مواقع دياسبارا»[1]. وقد برهنت آلة الدعاية في الدولة نجاعتها في استقطاب وإغواء مقاتلين محتملين لا سيما من الغرب. وهنا يطرح سؤال ملح: ماذا فعلت وكالة الأمن القومي الأميركية بنصوص مكالماتنا الهاتفية وبريدنا الإلكتروني عندما لم يكن بمقدورها اعتراض سبيل أي من وسائل التواصل العديدة التي يستخدمها الشبان والشابات في الغرب وينوون بعدها الانضمام إلى صفوف «الدولة الإسلامية» ليصبحوا مجاهدين؟ لماذا لا يعتقل هؤلاء قبل توجههم إلى دار الخلافة؟ لقد تم الكشف مؤخراً عن رابط قوي بين مسلمين شبان من مينيسوتا (اثنان منهم لقيا حتفهما وهما يقاتلان تحت لواء الخلافة) و«الدولة الإسلامية»[2]، ويعود هذا الرابط إلى عام 2009، وهذا يدفعنا إلى التساؤل: كيف غفلت وكالة الأمن القومي عن ذلك الرابط طيلة تلك السنوات؟

يدعو هذا الثقب الأسود في أوساط وكالات الاستخبارات إلى الحيرة لا سيما أن «الدولة الإسلامية» توظف استراتيجيات إلكترونية عديدة للترويج لبضاعتها على نطاق واسع، فاستخدامها للتطبيقات المخصصة شاهد على ذلك، فإحدى أنجح التطبيقات التي تستخدمها الدولة باللغة العربية على حساب تويتر تسمى «فجر البشائر» أو فجر. يستخدم هذا التطبيق لنشر آخر المستجدات المتعلقة بالمجموعة الجهادية

---

(1) «الدولة الإسلامية تتحول إلى أنظمة عمل جديدة بعد حجب التغريد».

http://www.bbc.com/news/world-middle-east-28843350.

(2) جاك هيلي «من أجل مجندي الجهاد خط أنابيب من مينيسوتا إلى العنف».

http://www.nytimes.com/2014/09/07/us/for-jihad-recruits-a-pipeline-fr
= om-minnesota-to-militancy.html.

ويعتبر صناعة رسمية من قبل الدولة يروج له مستخدميه أفضل ترويج[1].

كما رأينا فإن «الدولة الإسلامية» بارعة أيضاً في التعليق على ما يجري في العالم لكي تمرر رسائلها وتدعو لمبادئها، فخلال بطولة كأس العالم لكرة القدم 2014 استخدمت الدولة هاشتاغات مختلفة كـ# برازيل 2014 و# إي أن جي و# فرانس و# دبليو سي 2014، وهكذا سمحت لها هذه الأدوات الوصول إلى ملايين من متصفحي حسابات التويتر على أمل أن ينقر بعض القراء على الروابط التي تأخذهم إلى المواد الدعائية لا سيما المادة الفيلمية التي تعرض جهاديين أستراليين وبريطانيين يحاولون إقناع المسلمين القاطنين في الغرب باللانضمام إلى صفوفهم[2].

قد نجد إجابة شافية عن هذه الأحجية في طبيعة النزاع السوري، فبخلاف وضعها في العراق وليبيا تمثل «الدولة الإسلامية» في سورية معضلة دبلوماسية. هل يستطيع الغرب أن يفرط بعلاقاته مع روسيا والصين أو يفرط في مفاوضاته مع إيران في سبيل إنقاذ بلد تنحصر فيه المصالح الغربية في حدود ضيقة أو بالأحرى تنعدم تماماً؟ الإجابة عن هذا السؤال ولغاية صيف 2014 كانت بالنفي. يؤكد الصحفيون والعاملون في مجال الإغاثة واللاجئون أن تدفق المقاتلين الأجانب إلى شمال سورية كان في

---

(1) ج. م. بيرغر «كيف تلعب ISIS بالتغريدات».

http://www.theatlantik.com/internationayarchive/2014/06/isis-iraq-twiter-social-media-strdegy/372854.

(2) كاهال ميلكو «جهاديو ISIS يستخدمون هاشتاغ كأس العالم والـPremiere League لترويج الدعاية المتطرفة على التغريدات».

http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/iraq-crisis-exclusive-isis-jihasists-using-wold-cup-and-premier-league-hashtage-to-promote-extremixt-propagarda-on-twitter-9555167.html.

ازدياد دائم بينما كان العالم منشغلاً بأمور أخرى. تقول فرانشيسكا بوري: «كانت موجات تدفقهم إلى البلاد تتبع إحداها الأخرى، فبعد الانقلاب في مصر وصل أولئك الذين كانوا يؤمنون بحركة الإخوان المسلمين إلى قناعة مفادها أن قدر الأمم العربية مرهون بما تقوم به أميركا بحيث أصبح المعتدلون المسلمون لا يملكون حجة ينافحون عنها، لا سيما تلك التي تدعو إلى إرساء دعائم الديمقراطية التي تبددت مع الانقلاب المدعوم أميركيّاً. تدفقت موجة أخرى إلى سورية بعيد الهجمات على سجن أبو غريب في يوليو/تموز 2013 بما في ذلك العديد من السجناء الذين فرّوا من السجن والتحقوا بمجموعات مختلفة في سورية». **وقد دخل السواد الأعظم من المقاتلين الأجانب إلى شمال سورية عن طريق الحدود التركية بعد نزولهم في مطار هاتاي.** تستذكر فرانشيسكا مشهد الحدود التركية السورية وتقول: «ثمة عدد كبير من بطاقات الأمتعة التي تزودها شركات الطيران للمسافرين أثناء ارتحالهم، بطاقات تنتشر على الحدود السورية التركية». حطّت فرانشيسكا في ذلك المطار مرّات عديدة، المطار الذي يعتبر بالنسبة للمقاتلين الحجيج آخر محطة في رحلة الحج التي يتبعها الجهاد.

لا ريب أن السلطات التركية كانت على علم بما كان يحصل على حدودها مع سورية وإذا ما أرادوا أن يسمحوا للاستخبارات الغربية والإسرائيلية لتراقب هذه الظاهرة لكان بإمكانهم فعل ذلك، لكن الغرب لم يكن مكترثاً بما يحدث في سورية إلا عندما تحرك تنظيم الدولة وباغت الجميع باحتلاله أراضي شاسعة في العراق.

ورغم طغيان تنظيم الدولة على المشهد السياسي مؤخراً إلا أن سبب

تجاهل الاستخبارات الغربية للبغدادي وأتباعه، إبان تفاقم خطر وحجم مجموعته في سورية سبب غير مفهوم، فقد كان من السهولة بمكان اختراق عالمهم الافتراضي في تلك الفترة. فعلى سبيل المثال عام 2013 تابع عناصر تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام ومناصريه ومموليه النقاش الدائر على وسائل التواصل الاجتماعي بين أبي بكر البغدادي وأمير جبهة النصرة أبي محمد الجولاني بعد دمج المجموعتين، وقد دُعيت في مثال آخر الأسرة الجهادية العالمية للإدلاء بصوتها من خلال المنابر الإلكترونية عندما حصل صدام بين البغدادي وأيمن الظواهري حول الحق في القتال في سورية وطلب البيعة من أطراف عربية وأجنبية ومحلية مقاتلة. وقد تطلب ذلك الصدام عرض عضلات التنظيم وقدرته العسكرية على الأرض بالإضافة إلى قدرته على الترويج للآراء الشرعية من خلال التركيز على الإيديولوجيا باعتبارها مظلة يتعين أن تنضوي تحتها كافة التيارات الإسلامية الأخرى. وهكذا عبّر البغدادي والجولاني والظواهري عن آرائهم كلٌّ من موقعه، وهكذا تمّ تبادل الآراء ودار النقاش على المنتديات الجهادية ومواقع التواصل الاجتماعي لنصرة البغدادي في زعامته الشرعية [1].

ولم تسترعِ تلك النقاشات اهتمام المعاهد الفكرية والبحثية العديدة التي انتشرت كالفطر في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول لدراسة ظواهر التشدد والراديكالية والإرهاب. لا بدّ للمرء إذن أن يتساءل ويفكر برهة في أن الاستخدام المكثف لعناصر تنظيم الدولة لوسائل

---

(1) «قائد ISIS البغدادي يثبت أنه عدو شرس».

http://www.al.monitor.com/pulse/originals/2014/02/iraq-isis-baghdad i-mystery-html.

التواصل الاجتماعي وتوظيفهم أحدث التقنيات والأدوات لنشر دعوتهم وجمع الأموال، لا بد وأن يشكل هدية ثمينة ومادة دسمة للمراكز البحثية والفكرية. أجرت دورية الأتلانتيك تحليلاً خاصاً باستراتيجية «الدولة الإسلامية» الإلكترونية ووجدت أن كل تغريدة تغرّدها الدولة باللغة العربية، مستخدمة العنوان @ أكتيف هاشتاغز الذي يروج لأكثر الهاشتاغات شيوعاً، تتبعها اثنتان وسبعون تغريدة كمعدّل وسطي[1]. لقد كانت الفرصة أكثر من سانحة لدراسة ما يقوله البغدادي ورفاقه على المواقع التواصل الاجتماعي، لكن أولئك القادرين على تغيير سياسات بلدانهم لا سيما الاستخباراتية، لم يحرّكوا ساكناً.

تكمن المفارقة في أن الاستخبارات الغربية والإعلام لم يتجاهلوا نمو «الدولة الإسلامية» على مدار سنتين فحسب، بل بدؤوا يصغون إلى الأشخاص غير الموثوقين ويستقون معلوماتهم من منابر غير موثوقة وذلك عندما بدأت «الدولة الإسلامية» مؤخراً تسترعي اهتمامهم. وهذا يؤكد شحّ المعلومات الموثوقة عن «الدولة الإسلامية» والنزاع السوري. أما ضحايا هذه الفوضى العارمة فهم من الصحفيين في المقام الأول. تقول فرانشيسكا بوري: «بدأت بالاستعداد للعودة إلى حلب عن طريق الحدود التركية في الفترة ما بين إبريل ومايو/نيسان وأيار 2014. وحصلت على معلومات استخباراتية غربية حول الوضع في حلب، المدينة التي كانت

---

(1) كاهال ميلكو «جهاديو ISIS يستخدمون كأس العالم والـPremiere League لترويج الدعاية المتطرفة على التغريدات».

http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/iraq-crisis-exclusive-isis-jihadists-using-wold-cup-and-premier-league-hasuetags-to-promote-extremistpropaganda-on-twitter-9555167.html.

تشهد معارك ضارية بين قوات نظام الأسد والثّوار. قيل لي إن الثوار يحققون انتصارات كبيرة وإن نظام الأسد يتداعى. وقيل لي أيضاً إنه بإمكاني السفر بأمان على الطريق المؤدية إلى حلب. **كنت الصحفية الأجنبية الأولى التي اجتازت الحدود وانتهى بي المطاف مع سائقي على خطوط التماس نقود سيارتنا عابرين مسافة خمسة عشرة كيلو متراً. لا أدري كيف نجونا بأنفسنا ولكننا فعلنا، وعندما عدت قلت لمصادري الاستخباراتية إن نظام الأسد قد دحر الثوّار فاختفوا جميعاً ووقعت المدينة في قبضته. لكنهم لم يصدّقوني ولم ترغب الصحافة الدولية أن تنشر روايتي.** بل صمم الإعلام والاستخبارات على القول إن ما يرونه على اليوتيوب والفيسبوك مختلف تماماً عن روايتي. قالوا إن لديهم معلومات مختلفة من الثوار تصلهم عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي تظهر لنا صور انتصاراتهم، والصحيفة الوحيدة التي نشرت روايتي كانت صحيفة لوموند الفرنسية»[1].

إذن أصبحت مواقع يوتيوب وفيسبوك وإنستغرام أكثر مصداقية بالنسبة لنا مقارنة بتقرير صحفية إيطالية راغبة بالمجازفة بحياتها لتكشف الحقيقة وهي تعمل جسداً وروحاً في الميدان وعلى خطوط التماس، أما «الدولة الإسلامية» وكذلك الثوار والمجموعات الأخرى المتناحرة في سورية والعراق، فإنها جميعاً تعرف هذه الحقيقة.

عامل الجذب الحاسم للخلافة

قام الإعلام السائد عام 2003 بنشر أسطورة الزرقاوي الممولة حكومياً على أنه إرهابي خارق للعادة من دون تمحيص ولا تحقق، وبعد

(1) مقابلة مع فرانشيسكا بوري في 15 سبتمبر/أيلول 2014.

عشر سنوات حققت وسائل التواصل الاجتماعي الغرض نفسه إذ ساهمت في نشر صورة مضخمة عمداً لقوة ونفوذ البغدادي وتنظيمه المسلح. وكما حصل منذ عشر سنوات لم يكترث أحد بالتحقق من تلك المزاعم، إلا أن الحرب الدعائية والإعلام لا يكفيان لحشد الناس إذا كانت الأوهام التي يعرضها الإعلام لا تتوافق مع حلم أو كابوس المخيال الجمعي الذي يصوغه الناس. كان الناس قد عانوا من صدمات نفسية في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. ولهذا يمكننا أن نتفهم سهولة مهمة بلير وبوش في حشد الرأي العام لشن حروبهم رغم اعتمادهم على أكاذيب مضللة. بيد أن جاذبية «الدولة الإسلامية» في أوساط متتبعيها على مواقع التواصل الاجتماعي أمر يصعب تفهمه، فنحن نتحدث عن عدد لا بأس به من المناصرين والمقاتلين والداعمين والمعجبين. ثمة تقارير تقول إن «الدولة الإسلامية» اجتذبت اثني عشرة ألف مقاتل أجنبي، ألفان ومئتان منهم قدموا من دول غربية [1]، وهذه الأرقام لا تتضمن أعداد المناصرين والداعمين خارج سورية والعراق. فبينما تشير التقديرات مثلاً إلى وجود ستين مقاتلاً أسترالياً في العراق والشام، يعتقد أن أعداد المناصرين لفكرة الدولة في أستراليا يصل إلى المئة [2].

ما هو الشيء الذي يُحفِّز مسلماً شاباً مولوداً في الغرب ولديه

(1) سوهراب أحمري «داخل عقل الجهادي الغربي».

http://online.wsj.com/articles/sohrab-ahmari-inside-the-mind-of-the-western-jihadist-14009352541.

(2) جوناثان أوين «المقاتلون البريطانيون يشكلون حتى ربع الجهاديين الأجانب».

http://www.independent.co.uk/news/world/middle-easts/ialamic-state-backhgrounder-british-fighters-make-up-a-quarter-of-foreign-jihadists-9681547html.

عمل لائق للتخلي بين ليلة وضحاها عن رفاهية العيش ليشارك في حرب فتوحات في أرض لا يعرفها، في صراع شبيه بصراعات القرون الوسطى؟ بكلمة واحدة: ما هو عامل الجذب الحاسم الذي تتمتع به «الدولة الإسلامية»؟ هذه أسئلة ينبغي طرحها على أنفسنا.

يكمن الحافز ربما في وجود فرصة للمنافحة عن المسلمين وانتشالهم من المذلة التي يعيشونها في الشرق الأوسط، ولكن هذا الحافز عبّر عنه الانتحاريون في الغرب في السابق، من خلال تفجيرات شهدناها في عواصم مختلفة، لا سيما بعد غزو العراق على أيدي قوات التحالف. ربما ثمة حافز آخر يدفع الشباب المسلم للانضمام إلى الجهاد، وقد يكون ذاك مرتبطاً بوجود سانحة يكون فيها الجهاديون جزءاً من بناء نظام سياسي جديد في الشرق الأوسط، بناء دولة حديثة تخلو من العنصرية والتوتر الطائفي (بعد حصول تطهير عرقي هنا وهناك بالطبع). قد يكون أنصار «الدولة الإسلامية» تواقين لإرساء دعائم خلافة تدافع عنها أمة مسلمة نقية بعيدة عن الفساد والإفساد يستشري فيها حس عميق بأخوة الإسلام. مجتمع يخلو من إغواء النساء الغربيات أو المسلمات المستغربات وأمة يحكمها الشرف ومجتمع عصري يتساوق تماماً مع التوحيد وأوامر الله؟ بالفعل هذه الأمة المثالية لا تعد المسلمين فقط بكسر قيود المهانة التي عاشوها لقرون سابقة بل تمثل يوطوبيا (مثالية)[1] سياسية سنية في القرن الواحد والعشرين. مدينة فاضلة ذات بناء فلسفي صلب حاول العلماء

---

(1) اليوطوبيا أو الطوبائية هي تعريف لمصطلح إنكليزي المقصود به تصور حالة مثالية كاملة لا نقص فيها للمجتمع البشري ودعوة الناس لتحقيقها في حياتهم. [الناشر]

ترسيخه على مدى قرون غابرة ولم يفلحوا. هذه بالفعل القوة السياسية الحديثة التي شاء الغرب وبقية العالم أن يتجاهلها حتى صيف عام 2014.

وإذا ما كان هذا التحليل صائباً، فإن عامل الجذب الحاسم لدى «الدولة الإسلامية» يكمن في قدرتها على إقناع الشباب المسلم الغربي على تبني هذه اليوطوبيا (المثالية) والإيمان بأن الخلافة هي الأداة الناجعة لتحقيق تلك اليوطوبيا (المثالية) كما فعلت الحركة الصهيونية في أربعينات القرن الماضي عندما حشدت الجالية اليهودية العالمية لتأييد يوطوبيا الدولة اليهودية وغرست في نفوسهم اليقين بقدرتها على تحويل الحلم ليصبح واقعاً معاشاً من خلال تأسيس دولة إسرائيل الحديثة.

ولكن بخلاف دولة إسرائيل وبداياتها فإن سكان سورية والعراق لا يرحبون بوجود الأجانب. تقول فرانشيسكا بوري[1]: «بدأ قدوم الأجانب الأوائل إلى سورية في خريف عام 2012 للمشاركة في الحرب الأهلية، سمح السوريون بدخول الأجانب في البداية لأنهم أرادوا مساعدتهم للإطاحة بالنظام السوري ولكنهم لم يكونوا أبداً راضين عن وجودهم، إذ كانوا يقولون إنه وبمجرد سقوط النظام السوري فإن الأجانب سيعودون إلى بلادهم. لكن الجميع علم أن الأجانب دخلوا سورية ليبقوا فيها. ثمة توتر محتدم بين السكان المحليين والمقاتلين الأجانب الأكثر وحشية وعنفاً، فالمقاتلون الأجانب لا يثقون في الصحفيين بل يضايقونهم على الدوام لأنهم لم يختبروا الديكتاتورية أو الحرب كالسكان المحليين. فأنا لم أواجه أية مشاكل مع السوريين لكنني تعرضت للتهديد من قبل مقاتل

(1) مقابلة مع فرانشيسكا بوري في 15 سبتمبر/أيلول 2014.

نيوزلندي أتى إلى سورية كعامل مع منظمة غير حكومية مخترقة من قبل تنظيم الدولة الإسلامية».

لا يؤمن جميع المقاتلين بحلم يوطوبيا (المدينة الفاضلة) «الدولة الإسلامية»، فالكثير من الشباب الغربي انضم إلى صفوف الجهاديين أو الثوار باعتبار ذلك مغامرة شخصية بمثابة مخيم عسكري صيفي. وهؤلاء هم الأكثر خطورة لأنهم قساة القلب لا يرحمون السكان المحليين ولا يتفهمون المعاناة التي يرزحون تحت وطأتها.

النسخة الحديثة للسلفية

إن نجاعة البغدادي ومجموعته في العراق وسورية في جعل السنة يؤمنون بأن «الدولة الإسلامية» تحقق نجاحات لا يحققها أي تنظيم آخر هو بحد ذاته أمر مميز يدل على حداثة التوجه، ففي الماضي لم يكن بمقدور أي من المجموعات الجهادية إدارة دولة فعلية، ولم يكن لديها أدنى فكرة عن إدارة إمدادات المياه أو الإصلاح أو بناء الطرق، ولم تستطع تلك الجماعات توظيف العالم الافتراضي لتجنيد المقاتلين وجمع التبرعات من كافة أنحاء العالم، ولم تكن أيضاً قادرة على الوصول إلى توافق على التسليم بحكمها في المجتمعات المحلية التي تسيطر عليها. تلك الإخفاقات التي شهدناها في أفغانستان مع خلافة الملا عمر مرتبطة بالرؤية البالية ما قبل الحداثة إزاء المجتمع، تلك الرؤية التي كانت قد رسختها السلفية الراديكالية في الماضي.

إلا أن حلم الجهاديين كان ولا يزال متمحوراً حول إقامة دولة الخلافة من جديد، وقد كان ذلك الحلم من وجهة نظر سلفية راديكالية منفصماً عن الحداثة، وبذلك غدت فكرة الخلافة مبهمة ورومانسية (شاعرية) وغير

قابلة للتطبيق لأن السلفية رفضت بناء دولة حديثة، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك وجمدت، أعني السلفية الراديكالية، مفهوم المجتمع المثالي وتجلياته في بلاد العرب إبّان القرن السابع، وبالتالي فإن الأحداث المتتالية في هذا المضمار أصبحت خطيرة وزائدة عن الضرورة، فلا حاجة لبناء البنية التحتية للدولة الحديثة ولا حاجة لتوظيف التكنولوجيا الحديثة ومصداق ذلك حظر الموسيقى والراديو والتلفاز على يد طالبان.

وعلى تلك الخلفية قام البغدادي بشيء مخالف تماماً، إذ اختط لنفسه مساراً اعتمد فيه على توافق المجتمعات المحلية التي تعتبر امتداداً واحداً متماهياً مع جغرافية المناطق التي يسيطر عليها تنظيمه، سواء في سورية أو العراق، بحيث أصبحت تلك المجتمعات قاعدة شعبية تدعم أفعال السلطة السياسية التي تعتمد جميع أدوات الدولة الحديثة. وهذا بالفعل توجه استثنائي يثير العجب. يقول جيسون بورك، وهو عالم مخضرم في ميدان دراسة الجهاد[1] «دمج البغدادي بين الإسلامويين السياسيين الذين اشرأبت أعناقهم للإمساك بزمام سلطة الدولة وبين التقليديين الجدد الذين يؤمنون برؤية إسلامية عالمية توسعية دعوية، فاستحدث بذلك دولة مشوهة المعالم بعض الشيء لكنها تعتبر منصة انطلاق نحو توسعات أخطر، هذا المزج غير المسبوق يشكل توجهاً ذكياً ناجعاً».

إن صناعة أسطورة الزرقاوي أظهرت نجاحها لأن الحاجة إلى استغلال الفظائع التي ارتكبتها القاعدة في هجمات الحادي عشر من

---

(1) جيسون بورك «نظرة قائد ISIS للدولة عصري جداً على نحو عميق».

http://www.theguardien.com/Commentisfree-2014/aug/24/isis-abu-bakr-albaghdadi-jason-burke.

سبتمبر/أيلول بطرق مختلفة كانت حاجة ملحة لا سيما ربط التنظيم بصدام حسين، الطاغية الممقوت من قبل الكثيرين، من خلال قميص عثمان الذي تمثل في الزرقاوي وتمثيله لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، وفي الفترة ذاتها نجح بلير وبوش في الكذب على العالم بأسره وعلى حكومتيهما اللتين اعتقدتا أن احتمالية الاحتيال عليهما أمر غير وارد. أما الرأي العام العالمي فلا يزال متشبثاً باعتقاد سخيف مفاده أن المعركة اليومية السياسية في ظل دولة الأمة الحديثة هي معركة بين الخير والشرّ وحسب. بيد أن الذين لم يقعوا فريسة لذلك الوهم علموا علم اليقين أن الرابط بين القاعدة وصدام لا أصل له إطلاقاً وأن غزو العراق سوف يفضي عاجلاً أم آجلاً إلى زعزعة استقرار المنطقة بأسرها.

تندد اليوم الشريحة ذاتها من الناس بتصنيع أسطورة سخيفة إضافية، ليس في الغرب بل في العالم الإسلامي، أعني بها الخلافة الإسلامية وزعيمها البغدادي، فقد تتحقق النبوءة التي اخترعوها وتتحول إلى واقع من خلال وسائل التواصل الاجتماعي.

وبعد عقود من الحروب والدمار على أيدي النخبة المحلية المدعومة من القوى الغربية، يريد العرب السنة أن يؤمنوا أخيراً أن العنقاء الرائعة العظيمة خرجت بالفعل من تحت رماد الماضي السحيق المنسي. أعني بذلك بزوغ نجم الدولة وزعيمها الذي سيأتي بالخلاص من هذا الجحيم الآني. هل ذلك الرجل المنقذ هو البغدادي؟ وهل تلك الدولة المنشودة هي الخلافة؟ يؤمن الغرب والعالم أنهما ليسا كذلك لكن من يملك الإجابة الصحيحة في الوقت المناسب هم سكان الشرق الأوسط.



الفصل الخامس

الجهاد الحديث

إن زعزعة استقرار الشرق الأوسط على يد «الدولة الإسلامية» أفضى إلى تشكيل تحالفات غريبة لقوى إقليمية مختلفة، وقد دفعنا ذلك إلى مواجهة سلسلة للسيناريوهات الاستثنائية المريبة التي يصعب فهمها، منها تمويل السعوديين والإيرانيين للفلسطينيين في نزاعهم مع إسرائيل في صيف 2014، ولقاء السعوديين مع الإيرانيين سراً لمناقشة إمكانيات مواجهة وتفكيك الخلافة، وعمليات الولايات المتحدة السرية لتسليح «الثوار» السوريين، وقرار أوباما بقصف مواقع «الدولة الإسلامية» في سورية بدعم من تحالف كبير مؤلف من دول غربية وعربية من دون تفويض أممي. أما التطور الأكثر دهشة فلا يوجد في هذه التحالفات الغريبة بل في النجاح المذهل الذي حققته حركات التمرد المسلحة، التي تبدو للوهلة الأولى متخلفة بدائية في بناء الأمة مقارنة مع المحاولات السابقة الفاشلة لبناء الأمة في هذه الأوطان من قبل الولايات المتحدة الأميركية.

لقد خاضت الولايات المتحدة الأميركية ولأكثر من نصف قرن حروباً لم تنقطع منذ حرب فييتنام، وقد فعلت ذلك لسبب تعبر عنه بالجملة التالية «من أجل نشر الديمقراطية». وبعد دورات متتالية من الحروب التي تراوحت بين «اجتياحات كاملة واحتلال وحروب قمع التمرد وحروب

بالوكالة وغيرها»[1]، تمخضت عن تورط الجيش الأميركي في نتائج غير مشجعة لا سيما في العراق، فكيف يمكننا أن ننسى سقوط الموصل في يد الأميركيين ومن ثم تحريرها ومن ثم سقوطها للقضاء على الجهاديين؟ وكيف ننسى القتال مرتين في الفلوجة ووقوع خسائر فادحة في صفوف الأميركيين.

انسحبت جيوش بلير وبوش من العراق وعادت إلى بلادها «منصورة»[2]، أما مدينتا الموصل والفلوجة فقد وقعتا في قبضة الخلافة، وهي لا تزال في قبضة «الدولة الإسلامية» مع كتابة هذه السطور.

وقامت «الدولة الإسلامية» على نقيض ما فعله الجيش الأميركي بتوظيف حرب دعائية عالية التقنية وميثولوجيا (أسطورية) مغرية معلنة حرب فتوحات ناجحة بالاعتماد على تكتيكات إرهابية، حرب شنت تحت الراية الأيديولوجية الجهادية، الحرب المقدسة. وإذا فهمنا أن التفوق العسكري الأميركي لم يضمن النصر، كما تشهد هزائم أميركا العديدة خلال الخمسين سنة الماضية، فإن مفتاح النجاح العسكري يجب أن يكون في مكان آخر. وهذا يستدعي تمحيصاً لدوافع الجيش الأميركي وجيش «الدولة الإسلامية».

---

(1) توم إنغلهاردت «لا تبتعد عن الحرب: ليست هي الطريقة الأميركية».

http://original.antiwar.com/engelhardt/2004/06/10/dont-walk-away-from-war/.

(2) روبرت فيسك «أزمة العراق: الخلافة السنية مولتها المملكة العربية السعودية».

http://www.belfasttelagraph.co.uk/opinion/columnists/robert-fisk/iraq-crisis-sunni-caliphate-has-been.bankrolled-by-soudi-arabia-30351679.html.

فالجيشان يبرران أفعالهما بربطها بقضية كبرى، وهذا يطرح سؤالاً هل يعتبر وعد إقامة دولة سلفية راديكالية تعود حدودها إلى حدود دولة الخلافة القديمة وعداً أقوى من وعد الجيش الأميركي بإرساء الديمقراطية، وتمهيد الطريق أمام الشركات الغربية متعددة الجنسية لاستعمار السوق؟ وبالنظر إلى ما رأيناه خلال الـ11 سنة ماضية فإن الإجابة الصحيحة قد تكون بالإيجاب، إذا ما كانت حرب البغدادي المقدسة محفزاً أقوى من تصدير الديمقراطية الغربية يصبح من المهم جدّاً فهم أي نوع من الصراع ينهمك البغدادي فيه.

نوعان من الجهاد

تطور مفهوم الجهاد على يد العلماء المسلمين بعد وفاة النبي محمد. فانعكس ذلك في نوعين: الجهاد الأكبر وهو الجهاد الروحاني (النفس)، أي الصراع اليومي مع الهوى من قبل كل فرد مسلم. والجهاد الأصغر وهو القتال في سبيل الله ضد أعداء الأمة. وما نحن بصدده هنا هو النوع الثاني الذي تطور معناه خلال القرون الغابرة بينما لم يتغير مفهوم الجهاد الأكبر.

انعكست فكرة الجهاد الأصغر روحاً إمبريالية تشكلت إبان عظمة الإسلام كونه قوة عظمى، فقد شكل أداة لحماية جماعة المؤمنين، وقد فرق علماء الدين في تلك الفترة بين شكلين من أشكال الجهاد الأصغر: الدفاعي والهجومي، أما الأول فهو فرض عين على كل مسلم ليتسلح ويدافع عن حمى الإسلام إذا ما تعرض للاعتداء، أما الثاني في الجهة المقابلة فهو منوط بالخليفة وحده، ومهمته انحصرت في نشر الإسلام وليس حمايته. أما جهاد «الدولة الإسلامية» الحالي فيقع في خانة الجهادين.

فبينما يحوز الخليفة على أعداد كافية من المقاتلين الجاهزين للحرب، يعفى المواطن العادي من مشاركته في الجهاد الهجومي، لكن عندما تدعو الحاجة إلى جنود إضافيين لا يمكن لأي مسلم ملتزم أن يتجاهل نداء زعيمهم الروحي والسياسي. ولا يزال هذا المبدأ سارياً في حاضرنا اليوم. وبالتالي فإن البغدادي كخليفة شرعي للنبي محمد، لا يملك الحقّ في شنّ الحروب فحسب بل يمكنه أن يطالب كافة المسلمين بالمشاركة في هذه النزاعات ويدعوهم إلى الهجرة إلى دولة الخلافة. فقد أعلن البغدادي في خطاب تنصيبه كخليفة أن «من بإمكانه الهجرة إلى ربوع الدولة الإسلامية ينبغي عليه فعل ذلك لأن الهجرة إلى دار الإسلام واجب شرعي»[1].

إن إقامة دولة الخلافة الإسلامية الحديثة أمرٌ يقوّض أية سلطةٍ لأية منظمةٍ جهاديةٍ أو أي حاكم، وبذلك تمثل «الدولة الإسلامية» تحدياً محتملاً لشرعية كافة الحكومات الإسلامية لأنها تفرض سلطة الخليفة عليهم[2]. ولا ينبغي تجاهل هذا الادعاء لدى تقييمنا نوع التهديد الذي تشكّله الخلافة على المسلمين وبقية العالم على حدّ سواء. وبالفعل فإن إحدى مهام التحالف الدولي الذي روّج له أوباما تحت مظلة الناتو ويمشاركة نشطة لعددٍ من الدول الإسلامية في سبتمبر/أيلول 2014 تهدف إلى الحيلولة دون توسّع «الدولة الإسلامية» في المنطقة.

---

(1) دامين ماك إلروي «قائد ISISI:المسلمون يجب أن يقاتلوا حتى تسقط روما».

http://www.independent.ie/world-news/middle-east/isis-leadez-muslims-must-fight-until-rome-comqruered-303997749html.

(2) المصدر نفسه.

يقول مناصرو «الدولة الإسلامية» في غرف الدردشة وعبر التويتر بأن استراتيجية الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا إزاء عدم التفاوض لتحرير الرهائن الذين ستقطع أعناقهم كما تعرف تلك الدول، ترمي إلى إثارة الخوف لدى شعوبها. ويقول أحدهم إن هذا الخوف قد يخلق جواً سياسيّاً محلياً داعماً للتدخّل العسكري، كما حصل عام 2003. ولكن التدخّل في هذه المرّة سيهدف إلى حماية حلفاء الغرب في المنطقة، لا سيما السعودية ودول الخليج من الرسالة الثورية للخلافة التي قد تشعل ثورات بالفعل داخل تلك البلدان.

لقد أفل نجم الإسلام الإمبريالي التوسعي واكتسب الجهاد الأصغر معاني مختلفةً تناسب حاجات العصر. فقد أعاد السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر وسورية تعريف مفهوم الجهاد الأصغر[1] عندما واجه الفرنجة في حملتهم الصليبية الثانية التي تخلّلها عنفٌ مروّع فظيع. أما موارد الإسلام الروحية الراديكالية (الأصولية) فقد ألهبت مشاعر أتباعه في حملتهم الناجحة لإعادة فتح البلاد الإسلامية التي احتلّها الصليبيون.

وفي بداية القرن العشرين أصبحت ذكرى جهاد صلاح الدين جزءاً من كفاح الشرق الأوسط نحو الاستقلال عن القوى الاستعمارية الأوروبية، فقد قام حسن البنا، مؤسّس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، إبان الهيمنة البريطانية على مصر بإعادة صياغة الجهاد ليصبح

(1) صلاح الدين (1138/ 1137 حتى 4 مارس/آذار 1191) كان أول سلطان لمصر وسورية ومؤسس السلالة الأيوبية. قاد المعارضة الإسلامية للصليبيين الأوروبيين في الشرق الأوسط. في قمة قوته شملت سلطنته مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين والحجاز واليمن وأجزاء أخرى من شمال أفريقيا.

صراعاً ضدّ المستعمر للحصول على الاستقلال التام عن بريطانيا، وبعد عقود قليلة حوّل سيّد قطب، وهو مفكّر إسلامي مصري، الجهاد إلى ثورة ووسيلة لتغيير الأنظمة [1].

ومنذ الخمسينات من القرن الماضي ركّز الجدل الدائر حول المعنى الحقيقي للجهاد الحديث على ثلاثة مفاهيم هي مكافحة الصليبية والكفاح ضد الاستعمار والثورة، ويبدو أن «الدولة الإسلامية» دمجت تلك المفاهيم جميعها ليصبح الجهاد الأصغر يشكّل معنى مختلفاً تماماً عما كان عليه في السابق، أعني بذلك بناء الأمة. خطب البغدادي قائلاً: «سارعوا أيها المسلمون إلى دولتكم، إنها دولتكم... هذه هي نصيحتي إليكم وإذا ما التزمتم بها فإنكم ستغزون روما وتملكون العالم إن شاء الله»[2].

إن الحملة المناوئة للصليبية المتمثّلة في الثقافة الغربية وارتباط مصالحها في الشرق الأوسط من خلال التحالف مع النخب المسلمة الفاسدة مهّد الطريق إلى شنّ حرب فتوحات تقليدية قادها البغدادي. فبناء الأمة في الأراضي المفتوحة يحتاج إلى تغيير الأنظمة، وهنا يتكشّف العامل الثوري في حرب البغدادي، أعني بذلك تغيير الأنظمة الحاكمة في سورية والعراق تلك الأنظمة التي حكمتها نخب فاسدة سعت لخدمة القوى الأجنبية. ولكن ما يجعل هذا الجهاد الحديث مؤثّراً للغاية في صفوف المسلمين هو حقيقة أنه وخلال فترة وجيزة نجح في تحقيق نوعٍ ما من مشروع بناء الأمّة.

(1) لأن نظام عبد الناصر عذب قطب وسجنه وأخيراً شنقه أصبحت معاناته رمزاً لضحايا الأنظمة العربية القمعية.

(2) ماك إلروي «قائد ISISI: المسلمون يجب أن يقاتلوا حتى تسقط روما».

لم تحقق القاعدة إنجازات مهمة تقترب من إمكانية إحياء دولة الخلافة ولم تنخرط إطلاقاً في بناء الأمة، بل كان قادتها مشغولون بتدبير المكائد للاعتداء على أميركا. يقول أبو عمر، أحد مقاتلي «الدولة الإسلامية» في حوار نشر على الأنترنت مع صحيفة نيويورك تايمز»[1] القاعدة منظمة أما نحن فدولة»، تلخص هذه الجملة الأدوار المختلفة التي اضطلعت بها كلا المجموعتين المسلحتين انعكاساً لصورتهما في عيون الكثير من المسلمين والتهديدات المختلفة التي تشكلها كل منها.

وفقاً لهذا التحليل، شكلت إذن هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول لطمة في وجه الغرب، بينما شكلت الخلافة ضربة قاضية لحلفاء الغرب في الشرق الأوسط، الضربة التي تهدد استمرارية النظام الجيوسياسي (الجغرافية السياسية) الذي صمم أصلاً لخدمة الغرب وحلفائه من الأوليغارشيين (حكم القلة)[2]. والأثرياء والنخب الفاسدة في الشرق الأوسط. وربما شكل ذلك مفاجأة للغربيين، لكنه لا ينبغي أن يشكل مفاجأة لحكام الشرق الأوسط. فبعيد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول أخبر مسؤول الاستخبارات العامة السعودية نظيره البريطاني السير ريتشارد ديرلوف بأن «أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول تمثل وخزة إبرة في خاصرة الغرب، فهي ليست سوى سلسلة من

(1) بن هوبارد «ISIS تهدد القاعدة كحركة متطرفين رئيسة».

http://www.hytimes.com/2014/07/01/world/middeleeast/isis-threatens-a l-qaeda-as-flagship-movement-of-extremists.html.

(2) الأوليغارشية تعني حكم القلة، شكل من أشكال الحكم بحيث تكون السلطة محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية. [الناشر]

تراجيديات شخصية، لأن ما يريده أولئك الإرهابيون هو تدمير آل سعود وإعادة صياغة الشرق الأوسط»[1]. فصّل المسؤول السعودي في حديثه مع ديرلوف وعرض عليه تنبؤات تسعى «الدولة الإسلامية» اليوم أن تجعلها حقيقة واقعة.

إذن القضية كانت مسألة وقت قبل قيام منظمة جهادية مسلحة بتهديد مؤسسات الحكم في الشرق الأوسط من خلال إعادة صياغة مفاهيم قديمة بأدوات حديثة. مسألة وقت قبل أن تقدم منظمة مسلحة نموذجاً نهائياً لليوطوبيا (للمثالية) الإسلامية في المدينة الفاضلة، دار الخلافة، عن طريق خطة عمل تروق لملايين السُّنة، وتوظف أدوات حديثة في حرب دعائية محكمة. ففي عيون الكثير من المسلمين تعتبر «الدولة الإسلامية» كأسلافها من المنظمات نتاج عقود من الاستغلال والفساد والظلم. لكن بخلافهم تكيفت «الدولة الإسلامية» مع البيئة الجديدة الجيوسياسية (الجغرافية السياسية) متعددة الأقطاب واتبعت نهجاً براغماتياً (ذرائعياً) مع سكان المناطق التي تسيطر عليها.

تتفهم «الدولة الإسلامية» حساسيات القضايا المحلية فهي ابنة المنطقة كما يقال، وهذا ما يشكل عنصراً إضافياً يعزز من جاذبية طرحها، أما القاعدة فكان ينظر إليها كونها قوة أجنبية، الشيء الذي حاول البغدادي تجنبه عندما قام بتغيير اسم المنظمة عام 2012 من القاعدة في العراق إلى الدولة الإسلامية في العراق. وبالفعل لم يمتعض العامة من القاعدة بسبب زعامة المليونير السعودي ومساعده المثقف المصري بل بسبب

---

(1) «كيف ساعدت العربية السعودية ISIS كي تحتل شمال العراق».

http://www.blefasttelegrapb.co.uk/opinion/how-saudi-arabia-helped-isis-take-over-the-north-of-iraq-30435038.html.

ابتعادها عن ما يشغل المواطن العادي في المناطق التي نشطت فيها، إذ قررت أن تأخذ الجهاد بعيداً عن الشرق الأوسط وتشن هجمات ضد العدو الخارجي.

ولا شك أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول فتحت جبهة جديدة ضد العدو البعيد الولايات المتحدة، بعيداً عن مخيمات اللاجئين وبعيداً عن الآلام اليومية التي عانت منها شعوب الشرق الأوسط والظلم الذي مارسته الأنظمة العربية الفاسدة ضدهم. أضف إلى ذلك أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول كان قد وافق على شنها ثلة من الجهاديين فقط، شنت الهجمات في قلب أميركا بهدف إضعاف نفوذ الولايات المتحدة وحرمان حكام الشرق الأوسط الأثرياء من دعمها. فقد سوقت الهجمات في الإعلام الغربي باعتبارها الجهاد عينه. ورغم أن البعض في الشرق الأوسط كان قد صفق لانهيار البرجين إلا أن الإجماع الإقليمي يفيد بأن الهجمات لم تفض إلى أي شيء إيجابي، بل على العكس يأتي نقل القتال إلى بلدان بعيدة جدّاً عن الشرق الأوسط بعواقب كارثية على البلدان التي انطلقت منها الهجمات.

ولو كان بمقدورنا استشراف المستقبل لآمنا بأن استهداف العدو الأبعد كان عملاً عبثياً واضحاً، لكن أسامة بن لادن امتلك الوسائل الضرورية للتخطيط لشن هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بينما لم تتمكن من ذلك المجموعات الجهادية الأخرى. أما اليوم فقد تغيرت الأمور، فبينما تدير «الدولة الإسلامية» الخلافة على تراب الإسلام التاريخي تتعرض نواة القاعدة التقليدية إلى التدمير، فقد قضى ابن لادن وتحولت المنظمة التي أسسها إلى شعار جهادي عام.

إن جهد البغدادي في بناء الأمة في العراق وسورية يشكل عامل جذب مؤثر لأسباب جغرافية، فتلك المنطقة كانت ولا تزال مهمة للإسلام سياسيّاً ودينيّاً. يشرح على شبكة «السي أن أن» ـ مهرب مقاتلين أجانب على الحدود التركية الجنوبية بالقرب من هاتاي[1]ـ شعور من يهربهم لدى ولوجهم إلى سورية: «يعتقد العديد منهم أن مجرد عبور الحدود التركية السورية: يعتبر تجربة دينية، فعندما يصلون إلى الحاجز الذي يفصل الحدود يركعون ويبكون وينوحون وكأنهم التقوا بشيء أعزّ عليهم من آبائهم وأمهاتهم وذويهم، فهم يؤمنون أن هذه الأرض هي أرض المحشر والحساب في الآخرة»[2].

لكن الوقع الثقافي للخلافة الغابرة على المنطقة التي تسيطر عليها «الدولة الإسلامية» وقع مهول لدرجة أنه وبعد زوال تلك الثقافة العظيمة منذ قرون لايزال قاطنو الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يتحدثون اللغة ذاتها. بالإضافة إلى ذلك فإن سقوط الخلافة ولّد قروناً من الاستعمار والذل وترك ندوباً لا تندمل أثّرت سلباً على الهوية الإسلامية وزعزعت الثقة بالنفس لدى المسلمين. وعندما أعاد الأوروبيون رسم خارطة هذه المنطقة التاريخية، أعاد ذلك فتح الجروح العميقة. ومنذ القرن الحادي عشر[3]، مرات ومرات، اعتمدت كل حركة إسلامية في سعيها لإعادة

(1) هو الاسم التركي للواء الإسكندرون السوري والذي سلخ من سورية عام 1939 وأصبح جزءاً من الدولة التركية.[الناشر]

(2) نيك باتن وولش «طريق التهريب الجهادي السري عبر تركيا».

http://www.cnn.com/2013/11/04/world/europe/isis-gaining-strengh-on-syria-turkey-border/.

(3) التاسع عشر. [الناشر]

إحياء الأمة على الشعور بالحنين إلى الحدود القديمة للخلافة كما لو أن محو الحدود الحالية وإعادة توسيع نطاق الخلافة إلى عهدها السابق سيعيد خلق العظمة بسحر ساحر.

ولعبت الجغرافيا أيضاً دوراً مهماً في راديكالية الحركة السلفية مؤخراً، الحركة التي ساعدت في صياغة رؤى الزرقاوي والبغدادي الجهادية، أما ما ولد تشدد الحركة فكان توقيع اتفاقية سلام بين الأردن وإسرائيل عام 1994، التي يعتبرها الكثيرون حدثاً استثنائياً، فالاتفاقية تعترف رسمياً بالحق الجغرافي لإسرائيل بالوجود على أرض تعتبر جزءاً من أراضي الخلافة، فشكل التوقيع على تلك الاتفاقية مرحلة فارقة للحركة الجهادية وأدى ذلك إلى موجة انبعاث لحركات سلفية سرية من بينها حركة التوحيد والجهاد.



الفصل السادس

السلفية الراديكالية (المتطرفة)

إن جذور الأسباب الكامنة وراء ما نشهده اليوم تعود إلى حدث سياسي استثنائي يعتبره السلفيون خيانة كبرى وهو قبول رجال الدول العربية بإسرائيل كقوة سياسية على تراب الإسلام في أراضي الخلافة الغابرة.

أسس الجهاديون المخضرمون الذين قاتلوا الاتحاد السوفياتي السابق مطلع تسعينات القرن الماضي في كافة أرجاء الوطن العربي منظمات راديكالية (أصولية) سلفية تتطابق فيما بينها تقريباً وتشترك في اتساق الدوافع التي أسست من أجلها، نذكر منها الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا) في الجزائر وجيش عدن- أبين الإسلامي في اليمن وحركة التوحيد والجهاد التي كان الزرقاوي عضواً فيها، وقد اشتركت أيضاً في الغاية ذاتها وهي إشعال فتيل جهاد ثوري في العالم الإسلامي والإطاحة بالأنظمة الحاكمة الموالية للغرب. هذه الحرب الأهلية أو الفتنة ستطيح بالأنظمة العربية الحاكمة التي يعتبرها السلفيون طواغيت يجب أن تنتهي[1].

---

(1) تحت المجهر «إذاعة تلفزيونية لقناة الجزيرة الفضائية العربية. 1 يوليو/تموز 2004 باللغة العربية.

أصبح الزرقاوي أمير الجماعة التي كان ينتمي إليها في السجن، وهكذا عندما شكل مجموعته المسلحة في العراق أطلق عليها اسم حركة التوحيد والجهاد. ويشاطر البغدادي الزرقاوي عقيدته السلفية [1]، ومعلوم أن الأول ينحدر من أسرة متدينة سلفية الطابع، وهنا يكمن مفتاح التساوق بين رؤية الرجلين.

بيد أن السلفية في بداياتها، إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تكن مناوئة للغرب، بل على العكس لأن إعجاب العرب بحداثة الغرب هو الذي ولّد فكرة نشوء الحركة، التي أصابها الذهول من التطور الأوروبي، وبدأت البلدان العربية بمقارنة منظوماتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية مع تلك المتبعة في أوروبا بحيث أفضت المقارنات إلى إمعان النظر والتأمل في أزمة الإمبراطورية العثمانية التي كانت تمسك بزمام الأمور في العالم العربي في تلك الفترة، وهذا ما ولّد اهتماماً بالغاً بالحضارة الغربية [2]. وعُرف ذلك الحراك بحركة النهضة التي أنتجت من خلال احتكاك المفكرين العرب بأصحاب المثل الثورية الأوروبية وقراءة أدبياتهم. وهكذا شكلت النهضة بداية الحداثة في العالم العربي أو بالأحرى إرادة التحديث، وهكذا اعترف العرب بالتفوق السياسي والاجتماعي والاقتصادي للدول الأوروبية البرلمانية، وعندما تاقوا إلى بهجة الماضي وسحر إنجازاتهم العابرة أرادوا أن ينشئوا حداثة بنكهة

---

(1) متفرقات. «السيرة الذاتية للشيخ أبو بكر البغدادي».

http://archive.org/stream/theBiographeyofsheikhabubakrAlbaghdadi/the%20biorgzaphiy%20of%20sheikh%20ABakr%20Al-Baghdadidjvu.txt.

(2) ألبرت حوراني «تاريخ الشعوب العربية» (كامبريدج. م.أ. مطبوعات جامعة هارفارد 2003).

إسلامية، تنسج على منوال الثقافة السياسية الغربية، تتبناها دول عربية جديدة تبزغ من تحت أنقاض الإمبراطورية العثمانية المتداعية.

وهكذا سعت السلفية دائماً إلى تحديث العالم العربي وألقت باللائمة على الإمبراطورية العثمانية كسبب رئيس لفشل العرب في التطور على نسق أوروبا. ولكي يذللوا تلك العقبة، دعى السلفيون جميع المسلمين للعودة إلى صفاء الدين وأصوله من خلال الالتزام بالقرآن والسنة. وباختصار، شددت السلفية على الحاجة إلى العودة إلى الجذور كوسيلة لصقل الهوية العربية التي ستوفر بدورها العزيمة الصلبة لفك أسر الإمبراطورية العثمانية ونيل الاستقلال. تلك بطبيعة الحال كانت عملية تطهير روحانية بعد عقود من هيمنة السياسة والاقتصاد على الحياة اليومية للعرب.

بيد أنه ومع نهاية القرن التاسع عشر، تعرّض العرب لخيانة القوى الغربية التي أتت مساهماتها في تحديث العالم العربي على شكل استعمار وحشي، الأمر الذي دفع السلفية لكي تتحول إلى حركة نهضوية تطهيرية تكنّ العداء للأجانب. أما الهدف الرئيس للسلفية الحديثة فلا يزال مرتبطاً بتطهير الإسلام من لوثة الفساد والانحطاط الذي خلّفته القوى الاستعمارية الغربية. وهكذا، بعد أن كانت تكن العداء للإمبراطورية العثمانية، تحوّلت السلفية في عدائها نحو القوى الأجنبية الأوروبية التي تعتبرها مسؤولة عن تداعي العالم العربي، وبالتالي رفضت السلفية مفهوم الدولة الأمة للحداثة الأوروبية.

وعلى تلك الخلفية الدينية والفلسفية، أعاد سيّد قطب، في خمسينيات القرن الماضي تشكيل مفهوم التوحيد[1] وأسبغ عليه هوية سياسية محددة.

---

(1) http//www.oxfordislamicstudies.com/article/opr/t125/e2356.

كتب سيّد قطب من سجنه الذي زجّه فيه جمال عبد الناصر «الله هو مصدر السلطات وليس الشعب ولا الحزب ولا الإنسان»[1]. وتعرف هذه الفكرة بالحاكمية، فلا حاكمية لغير الله، وهذا ما يدفع الإسلام السياسي ـ وهدفه النهائي المتمثل في تجليه الوحيد الناجح بدولة الخلافة ـ يدفعه إلى صميم الساحة السياسية التي تُعرَّف حدودها من خلال التفسير الحازم للسنة النبوية التي لا تتطابق، كما يزعمون، مع الأشكال السياسية الحديثة للحكم كالديمقراطية والاشتراكية وغيرها.

شكلت رسالة قطب انفصالاً تاماً إذا صحّت العبارة عن سياسة عبد الناصر ذات الأسلوب الغربي ودعت في الوقت ذاته إلى تطهير الإسلام من أية تأثيرات خارجية، أكانت مقدسة أم مدنِّسة، إذ يؤكد قطب أن أي ابتعاد عن مبدأ الحاكمية (حكم الله) هو عمل ردة يُخرج عن الملة.

ورغم أن الاتهام بالكفر أو الردة (التكفير) هو مفهوم له أصله في الدين إلا أنه وعبر تاريخ الإسلام تحوّل إلى أداة سياسية ناجعة. وقد سمح ذلك لقطب العربي، بأن يتحدى شرعية ناصر، العربي الآخر، السياسية ويسمه بالكافر على قدم وساق مع العلوج الغربيين المستعمرين. شاعت اتهامات الردة ضمن صراع السلطة داخل الإسلام، وقد شنَّ أبو بكر، الخليفة الأول حروباً عرفت بحروب الرّدة (632ـ634 هجري). وتبع ذلك بسنوات قليلة الفتنة الكبرى التي عصفت بالمجتمع المسلم وأدت إلى نشأة الشرخ بين السنة والشيعة فيما بعد[2].

وخلال القرون الماضية استخدم الشيعة والسُّنة على حد سواء مفهوم

---

(1) المصدر نفسه.

(2) «مستقبل الشريعة:مناقشة الإسلام في ظروف الدولة العلمانية». =

التكفير ليقصوا بعضهم البعض من السلطة. وكما سنرى في الفصل القادم فإن البغدادي والزرقاوي استخدما التكفير ليبررا حروب الإبادة الجماعية التي شنوها ضد الشيعة الذين يعتبرونهم موالين وحلفاء دائمين للقوى الأجنبية.

= http://sharia-law.emory.edu/inde.hml%3fqen%252fowavs-apotasy-html.



الفصل السابع

المغول الجدد

اندهش العالم لدى سماع الأخبار التي تداولت موضوع استهداف النساء والأطفال الشيعة من قبل الدولة الإسلامية في القرى المحيطة بالموصل بعد اجتياحها في يونيو/حزيران 2014. وقد استخدم مقاتلو الدولة الأسلحة النارية لقتل مئات الأبرياء ودفن جثثهم في مقابر جماعية. وقد نهبوا بيوت الشيعة وصادروا ممتلكاتهم وأموالهم. وفي بلدة تل أعفر (تلعفر)، قام مقاتلو البغدادي بمصادرة محتويات 4 آلاف منزل باعتبارها «غنائم حرب»[1]. وقد قصفوا وحرقوا أضرحة ومساجد بنيّة محو آثار الوجود الشيعي في المنطقة. وقد تكرر هذا النوع من التدمير في كافة أرجاء الخلافة لتطبيق التطهير الديني الذي يؤمن كثيرون أنه التفسير الأكثر راديكالية لمطالب السلفية.

لكن كما سنرى فإن الحرب الطائفية الدموية التي أشعلها تنظيم الدولة الإسلامية ترتبط بمبادئ السلفية الراديكالية على نحو أقل من ارتباطها بتوظيف حرب الإبادة الجماعية كتكتيك للإمساك بزمام أمور

---

(1) «كيف ساعدت السعودية ISIS في احتلال شمال العراق».

http://www.belfasttelegraphe.co.uk/opinion/how-saudi-arabia-helped-isis-takeover-the-north-of-iraq-30435038.html.

حركة التمرد، وهي استراتيجية خطط لها الزرقاوي عام 2003 بعيد غزو العراق من قبل قوات التحالف.

ويغض النظر عن الهدف من وراء الأعمال البشعة التي يقوم بها تنظيم الدولة الإسلامية، فإن مفردة إبادة جماعية يبدو وكأنها ملائمة تماماً لوصف ما هو حاصل في سورية على مدى السنوات الفائتة وما يحصل في العراق منذ صيف 2004.

بالفعل، إذا كنت شيعيّاً أو شخصاً ينتمي إلى طائفة تتفرع عن الشيعة كالعلويين فإنك تصبح بمثابة اليهود في نظر النازيين في ألمانيا. ويحذوها حذو الزرقاوي، يبدو أن تنظيم الدولة يميل إلى اجتثاث الشيعة من أراضي الخلافة بأية وسيلة ممكنة بما في ذلك التصفية الجسدية.

وعلى هذه الخلفية، **يؤمن كثيرون أن انخراط البغدادي في سورية عام 2011 لا شأن له بالإطاحة بالأسد لكن الدافع يكمن في الرغبة في التطهير الإثني للعلويين وطردهم من المنطقة التي يقدّر لها أن تصبح مهد الخلافة الجديدة. مرة أخرى، يبدو أن المقارنة مع ألمانيا النازية وسمو العرق الآري لا مفرّ منها. فبينما يبرر هتلر القضاء على اليهود بالاعتماد على فلسفة اجتماعية تسمى «العرق السليم» تقضي بتحسين جينات البشر، يستخدم تنظيم الدولة مفهوم التكفير للقيام بتطهير ديني للإسلام.** فالشيعة وكلّ ما هو غير سلفي يعتبر في نظرهم مهرطقاً (زنديقاً) خارجاً عن الملة مذنب بذنب عظيم يستدعي القتل.

وقبل سبر أغوار الدافع الحقيقي وراء هذه الإبادة الجماعية، من الأهمية بمكان فهم قوة وسلطة مفهوم التكفير في المخيال الجمعي لدى الشيعة والسنة على حدّ سواء.

التكفير

إن جذر التكفير يمكن تقفي أثره بالعودة إلى الصدامات العنيفة الأولى بين السنة والشيعة إبان الفتنة الكبرى أو الحرب الأهلية الأولى بين المسلمين. وقد أشعل فتيل الأزمة عام 655 م. في السنة التي سبقت مقتل الخليفة عثمان. فقد كان النزاع قد شبّ عندما تناحر أتباع محمد حول قضية الخلافة.

اتهم عثمان بالردة من قبل أنصار علي الذين زعموا أن الأخير هو وريث النبي المباشر وبالتالي فهو أولى بالخلافة من عثمان. ولدت الفتنة الكبرى شرخاً عميقاً بين أنصار علي، الشيعة، وأنصار عثمان، السُّنة. ومنذ ذلك الحين أصبح كل فريق يكيل الاتهامات إلى الآخر ويصفه بالردة وذلك من خلال سعي الطرفين للفوز بالسلطة [1].

منذ القرن السابع ارتبط مفهوم التكفير ارتباطاً وثيقاً بالقضايا السياسية والاقتصادية ربما لأن الرسول كان زعيماً سياسيّاً ودينيّاً في الوقت ذاته. وبالتالي، فإن الحدود التي تفصل بين الروحانية والمادية داخل الإسلام أصبحت متداخلة. وهكذا، أصبح التكفير أداة سياسية تلبس عباءة الدين. ففي القرن الثامن عشر، على سبيل المثال، اتهم محمد عبد الوهاب، وهو داعية سعودي ومؤسس الحركة الوهابية، الإمبراطورية العثمانية بالردة زاعماً أنها ابتعدت عن جوهر الشريعة الإسلامية وحكم الله. وقد وفر ذلك الاتهام لآل سعود حجة لكي يتسلحوا ويعلنوا ثورة ضد حكامهم

---

(1) مايك شوستر «أصول الانقسام السنّي الشيعي».

http://www.belfasttelegraph.co.uk/opinion/how.saudi-orabia-helped-isis-take-over-the-north-of-iraq-30435038.html.

العثمانيين في شبه الجزيرة العربية [1]. وعلى مدى قرنين متعاقبين شنّ الحليفان القويان، آل سعود والوهابيون، حرب فتوحات اعتمدت على أسلحة سياسية واقتصادية مدفوعة أيضاً بحماسة دينية.

إن تعريف التكفير كان ولا يزال أمراً صعباً حاله كحال تعريف الإرهاب. ولهذا فإنه يمثل أداة مؤثرة في يد المجموعات الإسلامية المسلحة والقوى الطائفية لتبرير مطالبتهم بالشرعية. وكما رأينا في فصول سابقة فقد قام أعضاء في حركة الإخوان المسلمين في عقدي الخمسينات والستينات من القرن المنصرم بإعادة صياغة مفهوم التكفير لتبرير معارضتهم لجمال عبد الناصر، الشخص الذي حظر حركتهم ونزع الشرعية عنها، على حسب زعمهم. وهذه حالة استخدم فيها السُّنة مفهوم التكفير كسلاح ضد إخوان لهم من السُّنة.

إن مفهوم التكفير، في الأصل، لم يكن يهدف إلى تهميش المهرطقين (الزنادقة) وطردهم من المجتمع الرّوحي ولا حتى القضاء عليهم بل طردهم من المجتمع المادي، أي حرمانهم من المزايا الاجتماعية والاقتصادية عن طريق طردهم من منظومة التكافل. وبالتالي، يتمّ دفعهم خارج أطر الشرعية السياسية. أما مفهوم تصفية الشيعة فقد جاء به أبو مصعب الزرقاوي عام 2003 من خلال شن هجمات انتحارية متعددة ضد الشيعة.

عمى الغرب

جرت أول مهمة انتحارية في العراق في التاسع والعشرين من

(1) «العائلة السعودية والإسلام الوهابي».

http://.countrystudies.us/soudi-ardbia/7htm.

أغسطس/آب عام 2003 واستهدفت مسجد الإمام علي في النجف. وقد شكل ذلك الحدث مرحلة مفصلية في الصراع العراقي إذ فتح جبهة ثانية ضد السكان الشيعة. وقد بررت أفعال كتلك من خلال حرب دعائية كانت قد انطلقت قبل شهور من التفجير ومولت من قبل أطراف سنية رئيسة في المنطقة بما فيها السعودية وعدد من الأثرياء الأوليغارشيين في دول الخليج. وقد اتهم شيعة العراق ببناء تحالفات مع القوى الأجنبية التي سعت لتغيير النظام في العراق وهذه أفعال يعتبرها السلفيون أفعالاً مكفّرة تخرج من الملة.

وباستخدام خطاب سرمدي تدميري ضربت مقارنات بين غزو العراق في العصر الحالي وغزوه في القرن الثالث الميلادي من قبل المغول. تلك الصور التي رسخت في أذهان السنة وأشعرتهم بالعار حينما عاث المغول والتتار في أرض العراق فساداً ونهبوا خيرات مدينة السلام العظيمة عام 1258 م[1].

وقد تحدثت أدبيات كثيرة على الأنترنت، بعد سقوط نظام صدام حسين، عن عودة المغول من جديد. فالجريدة الإلكترونية المسماة «بشائر» ضربت مقارنة بين الغزوين وقالت إن المغول مهّدوا لوصولهم العراق باحتلال مملكة خوارزم (أوزبكستان وتركمانستان حالياً) تماماً كما فعلت قوات التحالف اليوم بغزوها لأفغانستان[2]. وقد عقد المغول والتتار

---

(1) نسيما نيغاز «سقوط بغداد في 1258 وفي 2003: دراسة في ذاكرة الصدامات السنية ـ الشيعية».

http://repositry.library.georgerown.edu/handle/10822/707405.

(2) «بشاير رقم 26 في 27 ديسمبر/كانون الأول 2004. من أجل المزيد من المعلومات عن مفهوم أن الأميركيين هم المغول الجدد انظر أيضاً: نائب الرئيس العراقي'آلاف من =

حلفاً لشن حرب على بغداد تماماً كما عقدت الولايات المتحدة الأميركية والمملكة المتحدة حلفاً لغزوها مؤخراً. وفي كلتا الحالين، هوجمت بغداد من الشرق والغرب واستمر الحصار لواحد وعشرين يوماً ظهر خلاله جلياً التفوق العسكري للغزاة وأصيب الناس بالذعر لدرجة أنهم لم يصلوا صلاة الجمعة الأولى التي عقبت الغزو. وفي القرن الثالث كما في القرن الواحد والعشرين أضعف التنافس بين الشيعة والسنة ركائز الدولة المركزية. تقدم المغول والتتار بجيوش جرارة من المرتزقة فاجتاحوا بغداد ونهبوها بينما وقفت قوات التحالف إبان الغزو الأخير تراقب مناصريها من العراقيين ينهبون المكتبات والمؤسسات الثقافية ويقتلون النساء والأطفال من دون أن تحرك ساكناً.

تنتهي المقارنة التي عقدتها «البشائر» بتنبؤ استخلصته من الدروس التاريخية لغزو المغول: بعد مرور سنتين على الغزو ونهب بغداد، تشكلت جيوش من مصر وسورية ومجموعات من المتطوعين العرب وهزمت المغول والتتار في عين جالوت. تقول خاتمة محرر الجريدة: «نحن على يقين أن الله سيعاقب أميركا مرة والى الأبد». «ولكن، متى ستأتي عين جالوت؟»[1]. ترسخ اليوم الدولة الإسلامية دعائم الخلافة من خلال احتلال مساحات واسعة من الأراضي بدأتها من سورية. وبهذا تأمل الدولة أن تكون الخلافة مقدمة للوصول إلى عين جالوت جديدة.

في صيف 2003، استخدم الزرقاوي التاريخ ومقارنة المغول لتبرير

= المهاجمين الانتحاريين سيقاتلون ضد الولايات المتحدة». دير شبيغل، 1 فبراير/شباط 2003: سام هامود: المغول الجدد. الجزيرة، 19 نوفمبر/تشرين الثاني 2004.

(1) المصدر نفسه.

مهاجمته للشيعة. فقد علل ذلك بقيام ابن العلقمي بمساندة المغول في فتحهم لبغداد وحث أعوانه على مناصرة الغزاة تماماً كما تآمر الشيعة مع الأميركيين ورحّبوا بهم لغزو العراق مجدداً[1]. وقد دفع ذلك إلى التناحر الطائفي بين الشيعة والسنة في العراق ضمن حركات التمرد لأول مرّة منذ أمد بعيد.

شكل تفجير النجف ـ باعتباره بداية قتال الزرقاوي الفعلي ضد شيعة العراق ـ التجلي الأول لصدام الشيعة والسنة، وهي حرب لاتزال الدولة الإسلامية تمدّ في عمرها. وكما شرح الزرقاوي لابن لادن في رسائل مكثفة منذ 2003 ولغاية 2005 بأن الفتنة ضد الشيعة كانت تكتيكاً لمنع تشكيل جبهة علمانية موحدة ضد قوات التحالف بحيث يتم تهميش الجهاديين. تلك الجبهة التي ستكون شبيهة بالجبهة التي شكلت منذ عقود وقادت الكفاح في العراق من أجل الاستقلال عن المملكة المتحدة[2].

إلا أن قوات التحالف فشلت عام 2003 في ملاحظة مدى أهمية الاقتتال الدائر بين الشيعة والسنة. فقد بدت دوافع تلك التفجيرات غير مفهومة ولم يتم الكشف عن مرتكبيها. وكانت قوات التحالف في تلك الفترة تقاتل ميليشيات الصدر باعتبارها المعارضة المسلحة الأساسية في العراق. أما المعارضة السنية، المؤلفة من فلول البعث والوطنيين المسلمين، فلم تشكل تهديداً جدياً في ذلك الوقت. بينما لو نظرنا ملياً

---

(1) في 28 أبريل/نيسان 2003 أعلن صدام حسين أن بوش قد دخل بغداد بمساعدة **القامي**: انظر أيضاً القدس العربي، 30 إبريل/نيسان 2003.

(2) لوريتا نابوليوني «أسطورة الزرقاوي».

http://www.antiwar.com/orig/napoleoniphp?articleidm7988.

وتفحصنا كيفية نشوء الراديكالية الإسلامية وتطورها خلال فترة فرض العقوبات الاقتصادية لكنا قد استدلينا على إشارات تقول بأن حرباً أهلية طائفية كبرى كانت تختمر تحت السطح قابلة للانفجار وزعزعة استقرار العالم الإسلامي بأسره في أية سانحة [1].

لم ينتبه الغرب للتغيرات العميقة التي اكتسحت العراق خلال فترة فرض العقوبات الاقتصادية في التسعينات من القرن الماضي. فقد انتشرت السلفية الحديثة، برعاية صدام حسين، في كل أرجاء العراق وأصبحت مصدراً مهماً للتشدد والراديكالية. أما الصحوة الإسلامية التي عصفت بالديكتاتور في أواخر حياته فقد كانت ترمي إلى استرضاء القبائل السنية التي كانت تعاني من شظف العيش في فترة العقوبات الاقتصادية. أصبح الدين ملاذاً مريحاً للطبقة السنية المتوسطة إبان العقوبات الاقتصادية الأممية الأميركية. شكلت الطبقة المتوسطة حجر الزاوية لحكم صدام حسين وقد لجأت إلى الإسلام كوسيلة روحانية للتكيف مع المعاناة

(1) بالعودة إلى 2003، كان وجود المقاتلين والمهاجمين الانتحاريين الأجانب في المثلث السني واحداً من العناصر الرئيسة التي ميزت بين المقاومة السنية والعصيان الشيعي. والعنصر الآخر كان خلفيات ودوافع الجماعتين. فبينما كانت الأخيرة صراع طبقات في جوهرها فقد كانت السابقة صليبية مضادة ضد القوات المتحالفة والحرب الأهلية ضد الشيعة. منذ البداية بحثت ثورة مقتدى الصدر الشيعية عن الاعتراف السياسي بتابعيه وقبل ذلك استُبعدت عن الحالة السياسية الرئيسة والحصة من الفطيرة السياسية للصدر نفسه. في الحقيقة استطاع الشيعة الحصول على إدارة «العراق الديمقراطي». كان المتمردون السنة، بدلاً من ذلك، منشغلين بالقتال في حرب شاملة ضد القوات المحتلة وبعد الهجوم الانتحاري ضد إمام مسجد علي وهي حرب أهلية ضد المسلمين المنشقين (المهرطقين).

الاقتصادية التي طال أمدها. وفي الوقت ذاته، ساعد التشدد والراديكالية في العراق صدام حسين على إخفاء فشل سياساته الاقتصادية. من خلال منع النساء، على سبيل المثال، من العمل في الأماكن العامة وحتى في المنازل وبالتالي خفّض معدلات البطالة إلى النصف إذ لم تؤخذ النساء بالحسبان لدى حساب معدلات من يسعى للحصول على عمل.

ويعكس القوى الغربية، أدرك الجهاديون أن الكثيرين من أهل المثلث السني كانوا، وعلى مدار عقد من الزمن، يتبنون مبادئ دينية سلفية راديكالية متشددة.

وبالتالي تدفق الجهاديون إلى تلك المنطقة قادمون من كافة أرجاء الشرق الأوسط لا سيما بعد سقوط صدام حسين. كان بعضهم على ارتباط بمجموعة سلفية عراقية تتخذ من المثلث السني مقراً لها في مناطق كالرمادي والفلوجة والموصل التي أصبحت أرضاً خصبة لتفريخ حركة التمرد السنية الجهادية.

وكان الزرقاوي من بين القادمين الجدد. لقد تجاهلت قوات التحالف التغيرات التي تمخضت عن عقد من العقوبات الاقتصادية وقد تجاهلت دول التحالف أيضاً خطر انتشار الجهاديين والمجموعات المتمردة في سورية. تلك الجماعات التي تلقت دعماً مالياً من ممولين في الخليج شكلت خطراً على المنطقة بأكملها. وقد تجاهل الغرب والعالم ظاهرة التشدد والراديكالية في سورية والعراق كنتيجة للتطرف الديني.

غياب الدين عن مسرح الجريمة

إنه لأمر سريالي (غير واقعي) أن تعتقد القوى الغربية أن ما يحصل

في الشرق الأوسط هو حرب دينية سببها الفتنة التي اندلعت في القرن السابع في شبه جزيرة العرب. بالفعل، عندما اندلعت نزاعات شبيهة على أيدي المسيحيين، فإن الدين لم يشكل سوى ذريعة للسياسة. في القرن الخامس عشر الميلادي في أوروبا، اعتبرت الردة جريمة يعاقب صاحبها بالموت البشع حرقاً. عجّت أوروبا بمواكب ما كان يسمى برسوم الإيمان أو التكفير العلني عن الخطيئة التي كان يخضع لها المدانون بالهرطقة أو الردة إبان سطوة محاكم التفتيش ويعدموا حرقاً باسم الدين. تستخدم الخلافة اليوم أسلوب قطع الرؤوس والصلب بطريقة مشابهة.

أما الخطر الأكبر الذي واجه أوروبا في القرن الخامس عشر فقد تمحور حول إمكانية نشوب حرب أهلية بين الكاثوليك والبروتستانت تدور رحاها بين خطين متنازعين دينيّاً لكن جوهرها يبقى ملتصقاً بالصراع المرير الذي عانت منه القارة العجوز قديماً ألا وهو الصراع من أجل السلطة. **إن اتهام الشيعة اليوم بالردة وتكفيرهم يرمي إلى إشعال فتيل حرب أهلية (فتنة) في العراق وسورية ودول أخرى. حرب يبدو للوهلة الأولى أنها اشتعلت لأسباب دينية تحجب المصالح السياسية والاقتصادية. لكن الواقع، كما كان في أوروبا القرن الخامس عشر، أن الدوافع في أصلها سياسية واقتصادية بامتياز لغرض الوصول إلى السلطة والسيطرة على المنطقة بأسرها.**

تدرك الخلافة جيداً أن بناء دولة جديدة تتمتع بشرعية عن طريق التوافق الشعبي يتطلب أكثر من مجرد حملة دعائية دينية على قنوات التواصل الاجتماعية. إنّ تطهير المناطق من الوجود الشيعي يوفّر مزايا عديدة لبناء الأمة من خلال ضمان دعم السكان المحليين السنة الذين

يشكلون شعباً متجانساً تختفي إمكانية اندلاع حرب أهلية في صفوفه. أضف إلى ذلك غنائم الحرب وجاذبيتها في عيون المقاتلين. باختصار، إن القضاء على الشيعة يجعل الأمور أسهل سياسيّاً واقتصاديّاً من وجهة نظر قيادات الخلافة بينما يرضي في الوقت ذاته حساً متجذراً في صفوف السنة للانتقام من الشيعة. وهذا لا يمكن إلا وأن يساعد في بناء الإجماع السّني الشعبي وتعزيز الولاء في الدولة الجديدة.

وعليه، فإن الحرب لا تعكس مهمة دينية بقدر ما تعكس تكتيكاً سياسيّاً يطبق من قبل قيادة تتمتع بحس براغماتي (ذرائعي) رفيع. وعلى عكس طالبان أو النازية، يظهر تنظيم الدولة مرونة في التعامل مع الآخرين. فأولئك الراغبون في اعتناق الإسلام مرحب بهم في الدولة الجديدة أما من هم قادرون على دفع الجزية فيمكنهم المغادرة بحرية. حتى إن الخلافة راغبة في تحرير الرهائن مقابل فدًى تدفعها القوى الأجنبية.

تنبع البراغماتية من صعوبة مهمة بناء الأمة التي يضعها التنظيم على رأس سلم أولوياته. لأن حكم المناطق التي دمّرتها الحروب على مدى عقود لا يتأتى إلا بإعادة بناء كامل لجميع البنى التحتية الاقتصادية والاجتماعية ودرء مطامع الدول الأجنبية والعربية على حدٍّ سواء والاستمرار في حرب الفتوحات.

لقد سما تنظيم الدولة فوق ميثولوجيا (الأسطورة) وخطاب المجموعات الجهادية السابقة. فقد أظهر براغماتية وحداثة في تطوير استراتيجيات مطلوبة للسعي وراء تحقيق حلمه الطموح في بناء الأمة. وقد خصخص الإرهاب بسرعة فائقة واكتسب بذلك الاستقلال عن مموليه وأرسى دعائم اقتصاد لا يعتمد تماماً على الحرب. وقد بنى

شراكات مع القبائل السنية المحلية لقمع المعارضة ومشاطرة الإيرادات من خلال استغلال موارد طبيعية رئيسة. لقد برهن التنظيم أنه متحوّط يدرك التبعات المحتملة لأفعاله، بل كان ذكياً بالقدر الذي لم يتمتع به نظام الأسد أو المالكي.

الفصل الثامن

الحروب العصرية /حروب ما قبل الحداثة

بدأ قادة العالم في التعامل مع تنامي قوة «الدولة الإسلامية» منذ يونيو/حزيران عام 2014. وقد رأيناهم يقدمون لناخبيهم خططاً حبلى بمصطلحات جديدة للتصدي للخطر الداهم. وقد ردّت «الدولة الإسلامية» على ذلك بارتكاب أفعال همجية كقطع رأس جيمس فولي وستيفن ستلوف ومن خلال بيانات تذاع من قبل أعضاء أوروبيين ورهائن كجون كانتايل. كيف استطاعت منظمة مسلحة، لم يسمع بها أحد منذ ثلاث سنوات، أن تتحدى القوى العظمى في العالم؟ ليس فقط عسكرياً على أرض المعارك في سورية والعراق بل إيديولوجياً من خلال توظيف جميع وسائل الاتصال الحديثة الممكنة [1].

تكمن الإجابة في الانهيار التدريجي للدولة الأمة في سورية والعراق. فقد انتكست حكومات تلك الأمتين وتحولت إلى كيانات تعيش في ظروف ما قبل الحداثة بسبب غياب دورها كحكومات تمثل شعوبها.

قوبل الربيع العربي في سورية برد فعل عنيف في خضم لامبالاة

(1) جون كانتلي «أعرني سمعك».

http://www.youtube.com/watch?vmvcew3qmdRi.

العالم، ويذلك تحطم حلم الديمقراطية. وقد لخص ذلك ببراعة علي الخضيري المساعد الخاص لخمس سفراء أميركيين في العراق والمستشار الأول لثلاث قادة للقوات المركزية منذ عام 2003 ولغاية 2010، حيث قال: «واجه المتظاهرون السلميون السوريون جيش الأسد وجهاز المخابرات وحزب الله اللبناني والميليشيات الشيعية الإسلامية العراقية ومموليها الرئيسي الحرس الثوري الإيراني وأصبحوا بالتالي مستائين ومحبطين وناقمين ومحرومين من حق المواطنة - ومن ثم متشددين راديكاليين ومقاتلين عسكريين عنيفين»[1].

افتتحت جبهات القتال بين الطوائف بين ليلة وضحاها وتحولت التظاهرات السلمية إلى حرب أهلية تحولت بدورها إلى حروب بالوكالة تدعم فيها عدد من دول الخليج مجموعاتهم السنية المسلحة في سعيها للانتقام من إيران، عدوها الشيعي الأول، والأسد حليف طهران العربي. خرقت الكثير من القواعد الدولية للحروب بما في ذلك حظر استخدام الأسلحة الكيميائية ضد المدنيين. نهبت أفخم الفلل في حلب وفي لمح البصر مثلاً اندلع نزاع استهدف أمة في القرن الواحد والعشرين.

وفي العراق، نكث نوري المالكي بوعوده في مشاطرة السلطة مع المجموعات السياسية الأخرى وما زاد الطين بلّة قيامه بحملة طائفية ترمي إلى تدمير منافسيه. فقد حاول إلقاء القبض على نائب الرئيس العراقي طارق الهاشمي، وتلقى دعماً من إيران وتسليحاً من قبل أميركا

---

(1) علي خضري «كيف نشأت ISIS».

http://www.theguardian.com/world/2014/aug/22/syria-iraq-incubators-isis-jihad.

إذ زودته بعربات الهامر وأم ـ16 ومدرعات، وقد واجه وزير المالية رافع العيساوي[1] وهو منافس سني رفيع المستوى المعضلة ذاتها واضطر إلى هجر السياسية والفرار إلى معقل قبيلته في محافظة الأنبار[2].

وفي خضم القلاقل العارمة التي اجتاحت العراق، صوتت المجالس البلدية في مناطق العرب السنة لصالح حكم شبه ذاتي على نسق ما حصل في إقليم كردستان المجاور. وقام المالكي بتعطيل إجراء الاستفتاء من خلال مناورات بيروقراطية على نحو ينافي دستور العراق. اندلعت تظاهرات عصيان مدني في المحافظات السنية لأن ملايين العراقيين وجدوا أنفسهم خارج نطاق المشاركة السياسية ولم يطالهم أي شيء من مزايا نجاح العراق الجديد بل تكبدوا خسائر بسبب إخفاقاته. وبزعمه أنه حصل على معلومات تفيد بأن القاعدة اخترقت معسكر الاحتجاجات، قام المالكي بسحق المتظاهرين مستخدماً قوة ضاربة. قتل عشرات المتظاهرين في مداهمة للجيش العراقي في الحويجة في أبريل/نيسان 2013 وقد زاد ذلك الوضع حرجاً وأدى إلى مزيد من تفاقم التوترات الطائفية [3].

قام الزعيمان الشيعيان، الأسد مدعوماً من روسيا والمالكي مدعوماً من الغرب بإساءة استخدام سلطتهما ولجأ كل منهما إلى العنف في قمع مطالب شعبيهما بالديمقراطية الحقة، ونكث كلاهما بوعده. فباستلامه

---

(1) علي خضري «كيف نشأت ISIS».

http://www.theguardian.com/world/2014/aug/22/syria-iraq-incubators-isis-jihad.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

السلطة بعد وفاة أبيه، رفع الأسد من سقف الآمال لدى الجماهير حينما وعد بإجراء إصلاحات ديمقراطية، كما وعد المالكي بالالتزام بالدستور في حكمه وأن يشكل أول حكومة عراقية تلتزم الديمقراطية نهجاً لها.

يشكل العراق مرآة لسورية التي تنتكس وتتحول إلى حالة ما قبل الحداثة، وقد سبقت دمشق مثيلتها بغداد ببضع سنوات. أما تفكك الدولة العراقية فقد بدأ لتوّه. وقد أظهرت «الدولة الإسلامية» فهماً استثنائياً لأوجه الشبه بين العراق وسورية مستغلة الفراغ في البلدين في التوقيت المناسب.

هل سيتعامل الغرب والعالم مع العراق كما تعامل مع سورية لا سيما بعد إعلان «الدولة الإسلامية» عن قيام دولة الخلافة. هذا سؤال تصعب الإجابة عنه. ففي الماضي، لم تستطع أميركا وأوروبا إيجاد معادلة لاجتياز الفيتو الروسي والصيني بشأن أي تدخل عسكري في سورية. وبينما يعلم الجميع أن الأسد يوفر للأسطول الروسي منفذاً على البحر الأبيض المتوسط ينبع تردد الصين من غياب الحصافة في التعامل الأميركي الأوروبي مع الملف الليبي وتغيير النظام هناك. إذ خلّف ذلك التدخل بلداً غير مستقر. ويبدو أن الغرب لا يريد الاستعجال في الإطاحة بديكتاتور عربي آخر في الوقت الراهن لا سيما بعد ادعاءات بوش وبلير الكاذبة في تبريرهم غزو العراق والثمن الباهظ الذي تكبدته قوات التحالف في تلك الحرب.

قد تكون سياسة الاحتواء الحالية إزاء سورية غير كافية عندما تواجهها منظمة مسلحة تحولت إلى دولة. بالفعل، إن طبيعة التحدي الذي تشكله «الدولة الإسلامية» يختلف تماماً عن التحديات الأخرى التي شكلتها نزاعات أخرى في المناطق التي انهارت فيها الدول الحديثة.

حرب عالمية ثالثة

أعلن البابا فرانسيس في صيف عام 2014 أن الحرب العالمية الثالثة قد بدأت، خليط من النزاعات تنتشر في أرجاء العالم لا تشبه الحربين العالميتين في القرن العشرين بل تشبه حروب ما قبل الحداثة التي لا تديرها دول ذات سيادة بل أمراء الحرب والإرهابيين والميليشيات والمرتزقة وذلك لاجتياح الأراضي واستغلال السكان والموارد الطبيعية فيها. ولم تكن أي من تلك الحروب تهدف إلى بناء الدولة الأمة.

وما تفتقده هذه النزاعات أيضاً هو الخنادق وأرض المعارك وحتى القواعد الدولية التي إلى حدّ ما شكلت مجموعة من القوانين التي تحكم سلوك المقاتلين. أما اتفاقية جنيف فقد ألقي بها في سلة النفايات. والأطراف المتناحرة في هذه النزاعات جميعها مذنب بارتكاب أفعال فظيعة بما في ذلك العنف الديني والتدمير الرهيب غير المبرر وحتى الإبادة الجماعية، حتى إن بعض الجيوش النظامية تتصرف وكأنها ميليشيات، صوّرت منظمة العفو الدولية في نيجيريا جنوداً نيجيريين وأعضاء في الفريق المدني المشترك، وهو ميليشيا مدنية - يقطعون أعناق سجناء يعتقد أنهم ينتمون إلى الميليشيا الإسلامية المشهورة «بوكو حرام» ويدفنون الأجساد ذات الرؤوس المقطوعة في مقابر جماعية [1].

من نيجيريا إلى سورية ومن الساحل الصومالي إلى أفغانستان يسقط الضحايا في هذه الحرب الجديدة وجلّهم من المدنيين. وحسب تقديرات

---

(1) منظمة العفو الدولية: نيجيريا مقاطع مصورة مرعبة تربط العسكر بجرائم الحرب».

http://www.amnesty.org/en/news/nigeria-gruesomc-footage-implicate s-military-war-erimes-2014-08-05.

منظمة العفو الدولية، سقط في نيجيريا في السنة الماضية زهاء أربعة آلاف شخص جلهم من المدنيين بسبب هجمات شنتها جماعة بوكو حرام والجيش النيجيري. وفي سورية نزح أكثر من مليون شخص وقتل أكثر من 200 ألف منذ بداية الحرب الأهلية.

ويمكن جمع بيانات الاتحاد الأوروبي، إذ تقدر الأمم المتحدة أنه وفي الفترة ما بين إبريل/نيسان إلى أغسطس/آب لقي 1.129 مدنياً حتفه في صدامات عنيفة بين الجيش الوطني الأوكراني وميليشيات الانفصاليين الموالين لروسيا، وتفيد إحصاءات غير رسمية أن الأرقام تفوق ذلك بكثير.

ما نواجهه هو نزاعات ما قبل الحداثة تستخدم التكنولوجيا الحديثة باحتراف، وهذا مزيج فتاك يزيد من وقوع ضحايا في صفوف المدنيين. ومثال ذلك إسقاط الطائرة الماليزية، رحلة رقم أم هيتش 17، في يوليو/ حزيران 2014 في الأجواء الأوكرانية.

كتبت البروفيسور ماري كالدور من جامعة لندن للاقتصاد ـ وهي مؤلفة كتاب الحروب الجديدة القديمة/ العنف المنظم في حقبة عالمية ـ: إن العولمة تزج بعض المناطق في فوضى عارمة شبيهة بوصف الفيلسوف توماس هوبز حالة الطبيعة «حالة البشر من دون مجتمع أهلي[1] (وأي حالة يمكن وصفها حقاً بحالة الطبيعة) لا شيء سوى حرب الجميع ضد الجميع... مع استمرار الخوف والخطر من الموت العنيف». الحياة قبل المجتمع الأهلي/المدني كانت «قصيرة ووحشية وكريهة». وهذه هي الظروف التي انحدرت إليها أجزاء من سورية والعراق.

---

(1) ماري كالدور الحروب الجديدة والقديمة: العنف المنظم في الحقبة العالمية. (مالدن، MA دار نشر بوليتي، 1999).

لقد قوّضت العولمة من استقرار عدد من الأنظمة التسلطية من ليبيا إلى سورية والعراق وما بعدها من خلال جعل الناس على دراية بظروفهم السياسية. فقد أنتج سقوط نظام القذافي عام 2011 فراغاً سياسيّاً ملأته ميليشيات قبلية متنافسة ليبيرالية وإسلامية متشددة. كما أن ردة الفعل العنيفة للربيع العربي السوري وانتفاضة سُنّة العراق أفضى إلى فراغ مشابه. **والهدف المشترك بين المجموعات المسلحة العديدة التي ملأته هو الوصول إلى السلطة السياسية والاقتصادية بهدف استغلالها. ولا تنوي تلك المجموعات استحداث دولة ديمقراطية ولا حتى أمة جديدة، بل على العكس، الفوضى هي البيئة المثلى لنهب الموارد واستغلال البشر.**

إن عملية تآكل الدولة وانهيارها هو بالتالي السبب الأساسي للطبيعة ما قبل الحداثة لنزاعات اليوم وهي ظاهرة ترتبط بالعوامل الاقتصادية ومستويات الفقر المدقع التي عصفت بالمنطقة وسكانها.

أتت العولمة بالازدهار إلى بعض المناطق كالصين ولكنها جلبت الفقر إلى مناطق أخرى كالشرق الأوسط وأجزاء من أفريقيا. فأزمة الدولة في أفريقيا مرتبطة بالتغيير المناخي من جهة وسباق الدول الثرية المحموم لاستغلال موارد القارة من جهة أخرى. أما في الشرق الأوسط فقد ساهمت ظاهرة أخرى في انتشار الفقر. ففي العراق مثلاً حولت العقوبات الاقتصادية على مدى عقد من الزمن الأمة التي كانت الأكثر تعليماً في الوطن العربي لتصبح أمة لا يحق للمرأة فيها أن تعمل، فالتقهقر باتجاه مجتمع ما قبل الحداثة حصل بالتوازي مع إفقار الأمة.

إن المزيج الفتاك بين العولمة وانتشار الفقر أفضى إلى انتشار الخوف وانعدام الأمن وأذكى نيران النزاعات المسلحة القبلية تحت رايات الدين

والطائفة، وغدت النزاعات متعددة الأقطاب حتماً، يتناحر في مالي الانفصاليون الطوارق والحركات الإسلامية فيما بينهم وضد الحكومة في الوقت ذاته، وتنخرط الميليشيات المسيحية والمسلمة في جمهورية أفريقيا الوسطى في حرب دموية تهدد بحدوث إبادة جماعية، وبينما يتخذ الجيش الوطني مواقع بحسب عقيدته تنشط القاعدة في بلاد المغرب في كل مكان في غرب أفريقيا.

يصبغ هذه النزاعات جميعها العنف الوحشي الذي يعرض غالباً من خلال الكاميرات والفيديوهات، وأكبر مثال على ذلك قتل الصحفي الأميركي جيمس فولي على يد تنظيم الدولة الإسلامية، فقد انتشر فيديو قطع رأسه على مواقع التواصل الاجتماعي انتشار النار في الهشيم.

بيد أننا سنخطئ إذا ما صنّفنا ما يقوم به تنظيم الدولة الإسلامية من حرب فتوحات في سورية والعراق على أنه نزاع ما قبل الحداثة كما وصفنا أعلاه. فبينما تعتبر حروب الفتوحات التي يقوم بها التنظيم جزءاً من الحرب العالمية الثالثة التي وصفها البابا فرانسيس، إلا أنها تختلف جذرياً عن النزاع العصري ما قبل الحداثة الذي تقوم به مجموعات أخرى مسلحة.

إعادة تعريف الدولة الحديثة

تشاطر «الدولة الإسلامية» الأهداف الطموحة التي وضعها مؤسسو الدولة الأمة الأوروبية حيث إنها تفصح عن تلك الأهداف بطريقة حديثة عصرية، ففهم «الدولة الإسلامية» للدولة الأمة، كما هو حال فهم إسرائيل ينطلق من مفهوم إثني ديني وليس إثنياً فحسب. فهي تحاول الإيفاء أيضاً بشروط الدولة الحديثة: التوسع الجغرافي والسيادة (إلى الآن معترف

بها داخليّاً) والشرعية والبيروقراطية. وعوضاً عن قناعتها بحيز جغرافي ضيق تسعى «الدولة الإسلامية» إلى استحداث نسخة جديدة للخلافة القديمة تتواءم مع القرن الواحد والعشرين لتتخلى وإلى الأبد عن الفوضى المستمرة. وهكذا، فإن أول مهمة تقوم بها في الأراضي التي تستولي عليها هي تطبيق الشريعة.

تعتبر «الدولة الإسلامية» المحافظة على الأمن والنظام من مسؤولياتها وهي تطبق ذلك ولو بطريقة بدائية. والخلافة مسؤولة أيضاً عن الدفاع عن الأراضي التي تسيطر عليها ضد أي عدو خارجي. وبالتالي، فهي تضطلع بمسؤولية الأمن القومي أيضاً. وهذه المفاصل، الأمن القومي والنظام والقانون تعتبر إشارات رئيسية تميز الدولة الحديثة عن الجيوب أو المناطق ما قبل الحداثة التي يسيطر عليها أمراء وبارونات الحرب. والعنصر المهم الآخر هو توافق السكان المحكومين أو ما يطلق عليه جان جاك روسو بالعقد الاجتماعي، أي شرعية الدولة.

لا شك أن «الدولة الإسلامية» تسعى للحصول على توافق الرعية بشتى الوسائل، وبخلاف المجموعات المسلحة الأخرى فهي على سبيل المثال تستخدم إيرادات الموارد الاستراتيجية كآبار النفط وسدود الكهرومائية ليس فقط لتغطية نفقات الحرب بل لبناء البنية التحتية الاجتماعية الاقتصادية داخل دار الخلافة.

كما أن للحرب الدعائية المتطورة دوراً أساسياً في تحسين صورة الدولة الفعلية التي تلقى شرعية لدى المسلمين ليس فقط محليّاً بل عالمياً. فالبغدادي يقدم للأمة الإسلامية جمعاء كالخليفة الجديد من نسل الرسول محمد. وتنشر الخلافة صوراً لجيش نظامي مختلف تماماً

عن العصابات المسلحة لتنظيم القاعدة أو جماعة بوكو حرام. جيش يشارك في معارك إضافية في الخنادق وساحات الوغى ويستخدم أسلحة متطورة (وهي أسلحة روسية وأميركية سرقت من الجيشين العراقي والسوري) وهي تجند مقاتلين أجانب مستخدمة حرباً دعائية متطورة. ويأتي المقاتلون الأجانب من أميركا وآسيا وشمال أفريقيا وأستراليا وحتى من نيوزيلندا. وبين احتمال انخراطها في تطهير طائفي، تعكف الخلافة في الوقت ذاته على الدعوة لاعتناق مذهبها إذ توفي فرصة التحول إلى المذهب السلفي السني ليصبح المرء مواطناً فيها. فأولئك الذين يرفضون ولا يستطيعون الفرار يعدمون. وهي تفاوض القوى الأجنبية لإطلاق سراح الرهائن، وتظهر براغماتية كانت تفتقدها القاعدة.

تختلف «الدولة الإسلامية» عن دولة الأمة الحديثة في الوسائل التي تتبعها لتحقيق أهدافها التوسعية والسياسية، فهي تستخدم الإرهاب كوسيلة للوصول إلى مآربها. وبينما تعتبر الثورات مصدراً مقبولاً لشرعية الدولة الحديثة، لا يعتبر الإرهاب كذلك.

وفي خضم الأزمة الوجودية للديمقراطيات الحديثة في العالم المتعدد الأقطاب وفي خضم انعدام الاستقرار في الشرق الأوسط وعلى خلفية حرب عالمية ثالثة تذكرنا بالنزاعات ما قبل الحداثة يكمن التحدي الحقيقي الذي يعترض سبيل «الدولة الإسلامية» في جهودها الغضة / الفتية في بناء الأمة. وبغض النظر عن نجاح الخلافة كدولة جديدة في المستقبل القريب، يعتبر النموذج الجديد الذي اختبرته مصدر إلهام حتمي للمجموعات المسلحة الأخرى، وإن فشل الغرب والعالم في التصدي لهذا الأمر سيفضي إلى تداعيات كارثية على النظام العالمي.

خاتمة

خلال كتابة هذا الكتاب وبينما كان تنظيم الدولة يُضرم النيران في الشرق الأوسط انطلقت ثورة شبابية تُطالب بالديمقراطية شلت الحركة في هونغ كونغ وعُرفت بثورة المظلات. فهل ثمة رابط يجمع بين تلك الأحداث؟ وما هو القاسم المشترك بين الربيع العربي ومنظمة إرهابية وحشية تحولت بنجاح لتصبح دولة تعيد رسم خارطة الشرق الأوسط بالدم؟

إن سبب اندلاع الانتفاضات الديمقراطية في العقد الأخير وبزوغ نجم «الدولة الإسلامية» يكمن في عدم الوضوح الذي يعتري عالمنا الذي أصبح متعدد الأقطاب مع بداية نهاية الحرب الباردة. أما الربيع العربي و«الدولة الإسلامية» على وجه الخصوص فتشكلان استجابتين مختلفتين للمشكلة ذاتها: مشكلة النخبة القيادية الفاسدة في الشرق الأوسط، ولكن لماذا فشل الربيع ونجحت «الدولة الإسلامية»؟

كما رأينا لا يمثل تنظيم الدولة نوعاً مختلفاً من الإرهاب فحسب بل ظاهرة حديثة بالفعل. فهل يكمن سر نجاحه في حداثته؟ ربما، فلقد رأينا كيف طوّع التنظيم نفسه ليتكيف مع ما قام به الغرب وحلفاؤه المسلمون من رفض للاعتراف ببروز خارطة سياسية دولية جديدة، فاستغل تلك الخارطة الجديدة إلى أبعد مدى.

إن نشوء نظام متعدد الأقطاب وصعود قوى بدأت تنافس قوة

الولايات المتحدة الأميركية، كالصين مثلاً، جعل النماذج القديمة للسياسة الخارجية غير مجدية في عالم اليوم. بالإضافة إلى أن أي تدخل غربي وفقاً لتفويض أممي غير وارد البتة بسبب معارضة كل من روسيا والصين. وحتى مع لمّ شعث التحالف الدولي العظيم، على يد الرئيس الأميركي، وشرعيته الظاهرية، فإن تدخله ضد تنظيم الدولة سينحصر في العراق ولن يتجاوز الضربات الجوية لدعم القوات المحلية المقاتلة على الأرض. بمعنى آخر، سيدعم التحالف أية جهة راغبة في قتال تنظيم الدولة على الأرض. وبالتالي، فإنه سيوسع من نطاق حروب الوكالة الحديثة المستعرة الواسعة أصلاً. وبذلك يشجع هذا النهج مجموعات أخرى لتنسج على منوال تنظيم الدولة وتستخدم الأسلحة والأموال التي يوفّرها الممولون لانتزاع دولتهم وبذلك يتزعزع استقرار الشرق الأوسط أكثر فأكثر.

إن قرار الأوروبيين والأميركيين تسليح البيشمركة وحزب العمال الكردستاني، التنظيم الذي لايزال مصنفاً على لائحة الإرهاب، أعاد رسم خطوط معركة الكفاح للحصول على كردستان مستقلة في تركيا حيث يشكل الأكراد عشرين في المئة من مجمل سكانها. ومن المعروف أن مواجهات كانت قد اندلعت بين الأكراد والأتراك في بلدات تركية مختلفة، كما قامت مظاهرات وأحداث شغب في كافة أنحاء أوروبا تطالب بكردستان مستقلة من ضمنها احتلال مؤقت للبرلمان الأوروبي.

في هذه الأثناء، لايزال سؤال التدخل العسكري يُحير قوات التحالف، إذ يبدو أن الضربات الجوية غير كفيلة بإيقاف تقدم عناصر جيش «الدولة الإسلامية»، وعليه فإن السؤال المتعلق باحتمال إعادة نشر قوات برية في العراق سيطفو مرّة جديدة على السطح للتداول والنقاش. وبغض النظر

عن المخرجات، فمن الواضح أن التدخل العسكري الأجنبي لن يحدّ من زعزعة المنطقة. فالتدخل الغربي لم يفض إلى إحلال الاستقرار في السابق ولن يفضي إلى ذلك في المستقبل. وهكذا، فإننا في أمس الحاجة إلى نهج براغماتي جديد لمنع حدوث مزيد من الدمار والموت. وهذا النهج يجب أن يقرّ بوجود قوة جديدة في المنطقة ويعترف بأن حروب الوكالة هي استراتيجية ستنقلب سلبياً في نهاية المطاف على من يضعها في المقام الأول، وعليه فإن هذا النهج يجب أن يسعى للتعامل مع القوة الجديدة عن طريق استخدام أدوات تختلف عن أدوات الحرب.

فتح نشوء عالم متعدد الأقطاب الباب على فرص جديدة لأولئك الذين يفهمون القواعد الجديدة للعبة. وقد رأينا كيف استغلت «الدولة الإسلامية» حروب الوكالة لمصلحتها، وكيف كشفت النقاب من خلال توظيف آلتها الدعائية الرهيبة عن التناقضات السريالية للتحالف العظيم الذي ركّب أجزاءه السيد أوباما.

احترفت «الدولة الإسلامية» السياسة الحديثة بالإضافة إلى احترافها التكنولوجيا المتطورة لأغراض اجتذاب وتجنيد المقاتلين وجمع الأموال، وهذه آيات واضحة على حداثة توجهها. فنجاحات بناء الأمة لحملتها الرقمية توفر أسلوباً يدل على قوة التواصل. وهذا لا ينطبق على حركات الاحتجاج الديمقراطية العديدة في العقد المنصرم.

شكل موقع توتير وقود الانتفاضة الإيرانية عام 2009. كما أن استخدام الفيسبوك خلال الربيع العربي عام 2011 نقل جميع الأحداث التي كانت تحصل في القاهرة إلى العالم لحظة وقوعها. وبعد ذلك بسنة، بثت حركة «احتلوا وول ستريت» احتجاجاتها عبر اليوتيوب. أما ثورة

المظلات في هونغ كونغ فإنها تستخدم البلوتوث لتتحايل على الرقابة على الأنترنت. لكن أياً من تلك الحركات لم يحدث تغييرات اجتماعية وسياسية واقتصادية بحجم ما أحدثته «الدولة الإسلامية».

لكن التكنولوجيا وفهم كيفية عمل عالمنا المتعدد الأقطاب ليس كافياً للنجاح المستدام. فهل يمكن أن تفشل انتفاضات الهواتف الذكية بما فيها الربيع العربي بينما تنجح «الدولة الإسلامية» لأنها تُدار من قبل نخبة من المحترفين توجه أفراد التنظيم بينما تجد الحركات الأخرى نفسها رهينة التأثر والمساهمة المستمرين؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يعتبر نموذج «الدولة الإسلامية» في بناء الأمة أكثر حداثة من نموذج الربيع العربي؟ هذه أسئلة مخيفة يجب على الديمقراطيات والدول الشرعية في العالم أن تتناولها إذا أرادت الحيلولة دون استشراء موجة جديدة من التسلطية.

هل ثمة خيار ثالث بخلاف فشل الربيع العربي ونجاحات «الدولة الإسلامية؟» نعم، ثمة خيار ثالث يتمثل في التعليم والتربية والمعرفة وفهم البيئة السياسية المتغيرة التي نعيش فيها. وهذه الأدوات ذاتها التي استخدمت في السابق لإجراء التغيير السياسي الخالي من إراقة قطرة دم واحدة باعتماده على الإجماع، الأمر الذي لا يزال مقاتلو الهواتف الذكية الشبان وسياسيو البدل الرمادية غير قادرين على استيعابه.

قاموس مصطلحات

- **العلويون**: طائفة دينية تستوطن في سورية وتتبع مذهباً شيعياً صوفي الصبغة. لا يُعرف الكثير عن هذه الطائفة لأنها انتهجت منهجاً باطنيّاً سريّاً عبر تاريخها ولم تنفتح على الآخرين. وهي تمثل أقلية ملحوظة في سورية إذ يشكل أفرادها 12% من مجموع السكان.
- **الجهاد ضد السوفييت**: الحرب التي شنها الأفغان ومحاربون مسلمون آخرون (مجاهدين) ضد الغزو السوفييتي لأفغانستان واحتلاله لها في الفترة ما بين ديسمبر/كانون الأول 1979 وفبراير/شباط 1989. الحرب التي انتهت بهزيمة الجيش السوفييتي وانسحابه.
- **الشيخ عبد الله عزّام**: مسلم سني كان من أشد الداعمين للجهاد ضد الغزاة السوفييت خلال عقد الثمانينات من القرن الماضي. فقد أسس مع ابن لادن تنظيم القاعدة ومكتب الخدمات الأفغاني بهدف جمع التبرعات وتجنيد الإرهابيين. وقد قتل بسيارة مفخخة في نوفمبر/تشرين الثاني من عام 1989.
- **أبو بكر البغدادي**: زعيم الدولة الإسلامية في العراق والشام سابقاً و«الدولة الإسلامية» حالياً، حيث نصّب نفسه خليفة على المسلمين.
- **الخليفة (CALIPH)**: لقب يطلق على الحاكم الديني والمدني المسلم

الأعلى المسؤول عن حماية البلاد والمحافظة على سلامة أراضيها وإرساء دعائم عقيدتها. يعتبر الخلفاء ورثة محمد. وقد اشتق المصطلح من كلمة «خليفة» وتعني «الوريث». كما استخدم سلاطين عثمان في القرن السادس عشر لقب الخليفة كلقب فخري بعدما اجتاح السلطان محمد الثاني، الذي عرف أيضاً بخادم الحرمين الشريفين، فلسطين وسورية وجعل مصر دولة تابعة للإمبراطورية العثمانية.

- **الخلافة**: دار الخلافة أو حكم الخلافة.

- **الحملات الصليبية**: سلسلة من الحملات العسكرية التي شنتها جيوش مسيحية من أوروبا الغربية بهدف استرداد الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين. شن البابا إربان الثاني أول حملة صليبية عام 1095. كما انطلقت ثمان حملات في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر. وقد شارك في تلك الحملات فرسان كانوا يعتقدون بأنهم سيضمنون مقاعد لهم في الجنة من جراء خوضهم تلك المعارك. أما المسلمون فاعتبروها حملات عسكرية مستمرة تهدف إلى تصفية المسلمين وتوسيع أراضي الإمبراطورية المسيحية على حسابهم.

- **حركة إيتا (Euskadi ta Askatasuna)**: وتعني «الحرية ووطن الباسك» بلغة شعب الباسك. وهي مجموعة مسلحة تقاتل في سبيل استقلال إقليم الباسك عن إسبانيا. وقد بدأت كحركة قومية تطلق على نفسها اسم EKIN وأصبحت في عام 1958 تعرف بحركة إيتا. استهلت المجموعة أنشطتها بزرع عبوات ناسفة في مدن الباسك كمدينة بلباو. وبدأت نشاطها العسكري عام 1968 وكثفت من أعمال العنف في السنوات اللاحقة حيث استهدفت السياسيين وقوات الأمن. ولا تزال

المجموعة نشطة في إسبانيا وتربطها علاقات مع مجموعات مسلحة أخرى في أرجاء العالم. أما أعداد المنتسبين إليها فقليل نسبياً. إذ يُعتقد أن ثمة عشرين ناشطاً قيادياً يشكلون نواة المجموعة بالإضافة إلى مئات من المناصرين. أما مقراتها فيعتقد أنها تنتشر في أقاليم الباسك في فرنسا وإسبانيا.

• **القوات المسلحة الثورية الكولومبية ـ الفارك:** أسسها مانويل مارولاندا فيليز وأعضاء آخرين من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في كولومبيا (Partido Comunista de Colombia-PCC) عام 1964. تعتبر القوات المسلحة الثورية الكولومبية (Fuerzas Armadas Revolucionarias de Colombia) منظمة مسلحة ذات صبغة ماركسية تهدف إلى الإطاحة بالحكومة. وهي تزعم أنها تدفع عن الفقراء القرويين في الأرياف ضد طبقات كولومبيا الثرية. وبالتالي، فإنها تعارض النفوذ الأميركي في البلاد. لا سيما خصخصة الموارد الطبيعية ووجود الشركات متعددة الجنسية. تستهدف المجموعة ملاك الأراضي الأثرياء والسياح الأجانب والمسؤولين المحليين والدوليين رفيعي المستوى. أما بنية المجموعة فعسكرية بامتياز. حيث تضم حوالي 7 آلاف منتسب يرتدون البزات العسكرية ويتصرفون كجيش نظامي. وقد تنامت أهمية المنظمة بسبب تحالفها مع مهربي المخدرات. يقدر الخبراء أن المنظمة تكتسب 200 إلى 400 مليون دولار سنوياً، نصفها على الأقل من تجارة المخدرات غير المشروعة ونصفها الآخر من عمليات الخطف والابتزاز وفرض ضرائب غير رسمية على سكان الأرياف (www.contrast.org/mirors/farc/).

• **الفتنة (Fitna):** أصلها الابتلاء أي امتحان المؤمنين. أما الآن فهي

تشير على فترات الفوضى والحروب الداخلية ضمن المجتمع المسلم. وتستخدم غالباً في التاريخ الإسلامي لتعكس الحرب الأهلية على وجه الخصوص.

- **الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا) (GIA)**: مجموعة إسلامية مسلحة يعتقد أنها تأسست في مارس/آذار 1992 على يد واحد من الأفغان العرب العائدين إلى الجزائر في أعقاب الحرب الأفغانية السوفيتية. تزعمها الأمير أبو عبد أحمد المعروفَ بـ«جعفر الأفغاني». أما هدفها النهائي فهو الإطاحة بالحكومة الحالية المدعومة من الجيش وذلك لإقامة دولة إسلامية قائمة على الشريعة. تقدر أعداد المنتسبين إلى الجماعة بنحو 20 إلى 25 ألف عضو. منذ ديسمبر/كانون الأول عام 1993، قامت الجماعة بشن هجمات عنيفة استهدفت الأجانب في الجزائر كما استهدفت مواطنين جزائريين أيضاً.

- **حماس (HAMAS)**: تأسست في الرابع عشر من ديسمبر/كانون الأول عام 1987 (بعد خمسة أيام من اندلاع الانتفاضة) كفرع فلسطيني لحركة الإخوان المسلمين. أما هدفها فهو إقامة دولة إسلامية فلسطينية لتحل محل إسرائيل. تُعتبر حماس المنافس الرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية في الأراضي التي احتلتها إسرائيل. وقد استفادت الحركة من فشل ياسر عرفات على الجبهة الدولية لا سيما بعد حرب الخليج. وهي تعتبر الحرب الوسيلة الوحيدة لتحرير الأراضي المحتلة وقد عزّزت من الرابط المباشر بين الإسلام وتحرير الأراضي المحتلة بحيث يفرض هذا الرابط قيوداً على أية تسوية محتملة بل يؤدي، بالأحرى، إلى رفض جميع التسويات بشأن القضية. تعتبر حماس الجهة المسؤولة

عن شن هجمات عديدة في إسرائيل في مقدمتها التفجيرات الانتحارية. لكنها كانت مستعدة للاعتراف بإسرائيل كشرط للانضمام إلى حكومة ائتلافية في بداية صيف 2014. تتركز أنشطتها في قطاع غزة وبعض مناطق الضفة الغربية. أما أهدافها، كما هو منصوص عليها في ميثاق الثامن عشر من أغسطس/آب لعام 1988، فتتضمن، بالإضافة إلى تحرير فلسطين وإقامة دولة إسلامية فلسطينية، رفض أي وجود غربي في الأقطار الإسلامية ومعارضة علمنة وتغريب المجتمع العربي.

- حزب الله (**Hezbollah**): مجموعة شيعية لبنانية راديكالية. تأسس الحزب عام 1982 كردّ على الاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام نفسه. يناصر الحزب فكرة إقامة حكم إسلامي في لبنان على غرار ما حصل في إيران ويدعم تحرير كافة الأراضي العربية المحتلة وطرد غير المسلمين من البلدان المسلمة. وينشط الحزب، المدعوم من قبل إيران، في وادي البقاع والضاحية الجنوبية من بيروت. وتقدر أعداد المنتسبين إليه بنحو 40 ألف عضو في لبنان بالإضافة إلى آلاف من المناصرين والمؤيدين. يمتلك الحزب أسلحة ثقيلة كمنصات BM-21 لإطلاق صواريخ غراد (أرض ـ جو) مثلاً. ومن المعروف أن عدداً من أعضائه كانوا قد تورطوا أو اشتبه في تورطهم في عدد من الهجمات المسلحة ضد الولايات المتحدة الأميركية. يعرف الحزب أيضاً باسم الجهاد الإسلامي لكن جناحه المسلح الرسمي يسمى بالمقاومة الإسلامية. وقد تأسس الجناح العسكري عام 1983 وهو يشرف على العمليات العسكرية في جنوب لبنان ويضم 400 مقاتل من ذوي التدريب الرفيع وخمسة آلاف مؤيد. وبخلاف الهجمات المتقطعة (جلّها تفجيرات وأعمال قتل)، يقوم الحزب بشن عمليات عسكرية فعلية ضد الجيشين

الإسرائيلي واللبناني. اكتست أنشطة المقاومة الإسلامية العسكرية صبغة غير شرعية على نحو مضطرد منذ عام 1993. وقد حاول الحزب ترسيخ وجوده اجتماعياً في الجنوب من خلال إقامة قاعدة شعبية له عن طريق القيام بأنشطة المساعدات الاجتماعية عبر الجهود المقدسة لإعادة الإعمار وتمويل إعادة بناء ما دمره الجيش الإسرائيلي. كما يقدم الحزب مبلغاً بواقع 25 ألف دولار لكل أسرة فقدت «شهيداً» من جراء القيام بالعمليات الانتحارية.

- **إمام (Imam)**: تعني، على إطلاق استخدامها، الشخص المسؤول عن إمامة المسلمين في الصلاة. وهو منصب لا يتطلب رسامة كهنوتية أو سلطات روحية خاصة بل دراية كافية تؤهل الإمام للقيام بالمهمة. ويستخدم الكثيرون من المسلمين السُّنة هذا المصطلح مجازاً للإشارة إلى زعيم جماعة المسلمين. أما في الأوساط الشيعية فيتخذ معاني كثيرة معقدة. لكنه، يشير، على العموم، إلى الأئمة المنحدرين من نسل علي (على أن تكتب كلمة إمام باللغة الإنكليزية ابتداءً بحرف آي كبير Imam وليس imam). أولئك الأئمة الشيعة الذين يُعتقد أنهم يمثلون مستودع العلم والإيمان والسلطة الروحية.

- **أصالة الإسلام (Islamism)**: أيديولوجيا سياسية قائمة على اعتقاد مفاده أن مبادئ الدين الإسلامي ينبغي أن تطغى على جميع الجوانب الحياتية سواءً الخاصة أم العامة.

- **ISI**: الدولة الإسلامية في العراق.

- **ISIS**: الدولة الإسلامية في العراق والشام. تعرف أيضاً اختصاراً بـ«ISIL» و«IS» «الدولة الإسلامية». وقد تأسست هذه المنظمة

الإرهابية رسمياً عام 2010 بينما يعود تاريخه نشأتها ابتداءً إلى القاعدة وبداية الألفية الجديدة. أما الأراضي التي تسيطر عليها فتغطي مساحات شاسعة من العراق وسورية. وقد قام جنود الدولة مؤخراً بشن هجمات على الموصل في نهاية عام 2014.

- **جبهة النصرة**: فرع من فروع القاعدة. تقوم بأنشطتها في سورية ولبنان. تأسست عام 2012 إبان الحرب الأهلية السورية. وقد تصادمت مرّات عديدة مع «الدولة الإسلامية في العراق والشام». وعلى مدار الفترة التي سبقت طباعة هذا الكتاب، كانت الجبهة تتعرض لخسائر فادحة في حروبها المفتوحة مع الدولة الإسلامية.

- **الجهاد**: ترجم هذا المصطلح في مناسبات عديدة وعلى نحو خاطئ بـ«الحرب المقدسة». وهو المفهوم الذي اخترعه الأوروبيون في فترة الحملات الصليبية على الشرق. أما كلمة «جهاد» فتعني «الكفاح» أو «المجاهدة» لغوياً. ومعناها في السياق الديني هو «الجهاد في سبيل الله». وينقسم الجهاد إلى نوعين: الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس وقمع الهوى (الشهوة والميول الشريرة، إلخ) والجهاد الأصغر وهو الدفاع المسلح عن حمى الإسلام ضد أي اعتداء خارجي. وقد استخدم النوع اللاحق من قبل مجموعات مسلحة مختلفة في مواجهاتها العنيفة مع الغرب: وأهمها ما دعا إليه أسامة بن لادن في فتواه من جهاد ضد الأميركان وما أسماه «الحرب العادلة» ضد الظالمين.

- **الجزية** (Jizyah): ضريبة تفرض على شرائح من المجتمعات المسلمة ممن هم ليسوا مسلمين. وبينما يغيب تطبيق هذا المفهوم في البلدان المسلمة إلا أن «الدولة الإسلامية» تطبقه في بعض المناطق.

- **القرآن**: كتاب المسلمين المقدس
- **كفر (Kufr)**: توصيف لأولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام.
- **السلفية الحديثة**: تفسير راديكالي للسلفية. حركة تعادي الغرب بشراسة وتطالب بالعودة إلى صفاء وجوهر الإسلام.
- **مجاهدون**: مفردها «مجاهد» وتعني حرفياً «الشخص الذي يقوم بالجهاد». وقد أطلق هذا المصطلح على المسلمين الذين حاربوا الجيش السوفييتي الذي احتل أفغانستان (1989ـ199) وترجم المصطلح إلى «المحاربين المقدسين».
- **مكتب الخدمات**: يعرف أيضاً بمكتب الأفغان العرب. وهو منظمة أسسها عام 1984 كل من أسامة بن لادن وعبد الله عزام. هدفها جمع التبرعات وتجنيد جنود إرهابيين يقاتلون ضد السوفييت. تم دمج المكتب بالقاعدة التي استوعبته بعد مقتل عبد الله عزّام.
- **الإخوان المسلمون**: تأسست في مصر عام 1928. وتعتبر نموذجاً لكافة الحركات الإسلامية السنية الحديثة. تنتشر في كافة أرجاء العالم وتسعى إلى إرساء دعائم إسلام إصلاحي.
- **النهضة**: نهضة ثقافية حدثت خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في مصر والشرق الأوسط. وقد دفعت بها أسباب أحدها يتمثل في احتكاك النخب الشرق أوسطية بالعالم الأوروبي. ينظر إليه باعتبارها فترة إصلاح وحداثة فكرية.
- **القومية أو أصالة الوطنية**: يستخدم هذا المصطلح ليعكس مزاج أو أيديولوجية الارتباط الوثيق بالأمة ومصالحها. يتأتى أصله من نظرية

مفادها أن الدولة ينبغي أن تؤسس في أمة وأن الأمة ينبغي أن تشكَّل كدولة. وتتطلب القومية ضمير الهوية الوطنية التي قد تتضمن وحدة الأرض ومشاركة اللغة والأعراف وعناصر ثقافية أخرى.

- **الملا عمر**: الزعيم الروحي والقائد العسكري لحركة طالبان. وكان أيضاً زعيم أفغانستان في الفترة ما بين عامي 1996 و2001 حيث أطيح به عندما شنت الولايات المتحدة الأميركية حربها على البلاد.

- **الإمبراطورية العثمانية**: الإمبراطورية العثمانية التي أسسها في نهاية القرن الثالث عشر عثمان الأول جدّ السلالة التركية التي بدأ حكمها في شمال غرب الأناضول وتوسع على يد خلفائه، الذين عرفوا بالعثمانيين، واحتلوا الأراضي البيزنطية في غرب الأناضول وجنوب شرق أوروبا. امتد حكم الإمبراطورية في ذروتها ليشمل الشرق الأوسط وأجزاء من شمال أفريقيا وجنوب شرق أوروبا. إلا أنها بدأت بالتداعي والتفكك في القرن التاسع عشر ثم ما لبثت أن انهارت في نهاية الحرب العالمية الأولى إذ تحولت قلب بلاد الأناضول إلى الجمهورية التركية وأصبحت الولايات الأخرى دولاً مستقلة معترف بها.

- **منظمة التحرير الفلسطينية**: حركة وطنية فلسطينية تشكل المنظمة المركزية لجميع الحركات الفلسطينية. أسسها أحمد الشقيري عام 1964 برعاية مصرية. أما هدفها، وفقاً لميثاقها التأسيسي لشهر مايو/ أيار 1964، فهو إقامة دولة فلسطينية مستقلة على الأراضي التي تغطيها اليوم إسرائيل، أو على الأقل، الأراضي المحتلة (غزة والضفة الغربية). تزعم المنظمة الراحل ياسر عرفات (1969-2004) وخلفه في المنصب محمود عباس.

- **البيشمركة**: الاسم الرسمي للجيش الكردي. وقد وجد هؤلاء المقاتلون، بشكل أو بآخر، منذ العشرينات من القرن الماضي إبان انطلاق حركة الاستقلال الكردي بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية. ومن الملاحظ وجود النساء في صفوف المقاتلين.

- **القاعدة**: تأسست عام 1988 على يد أسامة بن لادن وأبو عبيدة البنشيري، القائد العسكري الأعلى. وهي شبكة سعت إلى تجنيد العرب المتطوعين لقتال السوفييت. كما ساعدت على تمويل وتجنيد وتدريب المتطرفين الإسلاميين السنة للمشاركة في المقاومة الأفغانية. وما لبثت أن أصبحت منظمة ثورية إسلامية سنية متعددة الإثنيات استمرت في القيام بأنشطتها في أعقاب الحرب الأفغانية. أما هدفها الرئيسي فهو إقامة الخلافة الإسلامية على كافة أراضي المسلمين في العالم الإسلامي. ولهذا فإنها تسعى إلى مدّ الجسور مع المنظمات الإسلامية المسلحة الأخرى للإطاحة بالأنظمة السياسية القائمة التي تعتبرها أنظمة غير إسلامية. كما تسعى القاعدة إلى طرد الغربيين وغير المسلمين من البلدان المسلمة. وكانت قد اندمجت في عام 1998 مع حركة الجهاد المصرية («الجهاد»). أما عدد المنتسبين إليها فيتراوح بين بضع مئات وبضع آلاف.

- **الألوية الحمراء** (Brigate Rosse، BR): تأسست عام 1969 في إيطاليا وخرجت من رحم الحركة العمالية والطلابية. تناصر أيدلوجيتها استخدام العنف في خدمة الثورة والحرب بين طبقات المجتمع. قامت هذه المجموعة بأنشطتها داخل إيطاليا واستهدفت رموز المؤسسة

الحاكمة كالسياسيين ورجال الأعمال وأساطين القطاعات الصناعية وغيرهم.

- **مقتدى الصدر**: زعيم إسلامي عراقي ذو نفوذ واسع. انسحب من الحكومة في فبراير/شباط من عام 2014.
- **السلفية**: جماعة من المسلمين تتبنى نهجاً حرفياً وصارمًا للالتزام بمبادئ الإسلام. وقد نشأت في القرن التاسع عشر كاستجابة على النفوذ الأوروبي في المنطقة. تعتبر السلفية أحياناً حركة تطهيرية ترتبط غالباً بالجهاد. ونجد جلّ أتباعها يقطنون السعودية وقطر والإمارات ويشكلون الأقلية المهيمنة في الشرق الأوسط.
- **SCIRI**: المجلس الإسلامي الأعلى في العراق. حزب سياسي إسلامي شيعي عراقي.
- **شريعة** (Sharia): تعنى حرفياً «التشريع». مصطلح يشير إلى القواعد القانونية والأخلاقية التي تلزم المسلمين بفعل أمر أو تنهاهم عن فعل آخر.
- **الشيعة**: سلالة أنصار علي، زوج ابنة محمد، الذي رفض الخضوع للخليفة معاوية إبان الفتنة الكبرى. وقد ولّد ذلك الشرخ الأعمق في الإسلام.
- **الدولة الوهمية**: مخاض عملية تقوم منظمة مسلحة من خلالها بإرساء دعائم بنى تحتية اقتصادية واجتماعية (ضرائب، خدمات عمل، إلخ) لدولة ما ولكن بغياب البنية التحتية السياسية (غياب الأراضي وانعدام حق تقرير المصير).

- **التكفير** (takfir): اتهام بالرّدة.
- **التوحيد**: توحيد الله في ميثولوجيا المسلمين.
- **التوحيد والجهاد**: مجموعة إسلامية مسلحة تأسست في الفلوجة عام 2003. ترأسها أبو مصعب الزرقاوي. قامت المجموعة بتزوير وثائق لأكثر من 100 من مقاتلي تنظيم القاعدة الذين كانوا قد فرّوا من أفغانستان خلال حرب 2001. كما وفرت لهم أموالاً وملاذات آمنة (بالقرب من طهران) ونظمت عملية نقلهم من إيران إلى مناطق أخرى في الشرق الأوسط والغرب. أعلنت المجموعة عام 2004 عن بيعتها لأسامة بن لادن وغيّرت اسمها لتصبح القاعدة في العراق.
- **حروب بالوكالة**: مصطلح يطلق على حرب يخوضها طرف ثالث نيابة عن قوى عالمية عظمى. ومثال ذلك ما حصل في الحرب الفيتنامية في أواخر الستينات من القرن الماضي.
- Ulema: علماء إسلاميون.
- Umma: مجتمع المؤمنين الذي يسمو على الاختلافات الاقتصادية والسياسية والإثنية والوطنية.
- **زكاة** (Zakat): فريضة تشكل ركناً من أركان الإسلام الخمس. وتعني حرفياً «التطهُّر».
- **أبو مصعب الزرقاوي**: مقاتل إسلامي من الأردن أدار معسكر تدريب إرهابي هناك في منتصف التسعينات. بزغ نجمه بعد ذهابه إلى العراق حيث أصبح مسؤولاً عن عدد من التفجيرات خلال الحرب على العراق. قتل على يد القوات الأميركية عام 2006.

فهارس عامة



فهرس الأعلام

فهرس الأماكن



لوريتا نابوليوني

صحفية و محللة سياسية و خبيرة اقتصادية عملت بالعديد من البنوك والمنظمات الدولية في أوروبا وأمريكا -، ولدت عام 1955 في روما - إيطاليا.

عضو ناشط في حركة النسوية والماركسية منذ أواسط السبعينيات.

حصلت على منحة من جامعة جون هوبكنز الأمريكية الشهيرة للدراسة الدولية المتقدمة.

وكذلك من كلية لندن للاقتصاد الشهيرة.

لديها ماجستير في فلسفة دراسات الإرهاب من جامعة شرق لندن.

وهي حاصلة أيضاً على ماجستير في العلاقات الدولية من كلية الدراسات الدولية المتقدمة.

تكتب بعدد من الصحف الإيطالية والأوروبية.

قامت بإعداد أبحاث وتقارير حول الإرهاب وآلية عمل مالية الإرهاب واقتصاداته.

لديها مجموعة من الكتب منها:

ملف بغداد وهو عن حرب الخليج الأخيرة عام 2005 وقد ترجم إلى 12 لغة.

وكتاب - الزرقاوي والجيل الجديد - اقتصاد ابن آوى - 2008.

الاقتصاد المارق - 2008.

الإرهاب والاقتصاد 2010؟

عشر سنوات هزت العالم، تسلسل زمني للأحداث من 2001 الى 2011، صدر عام 2011.

وكتاب ديمقراطية للبيع عام 2013.